

القرآن

وحاجة الإنسانية إليه

د. عبد العزيز صقر

المقدمة

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾^(١)
والصلاة والسلام على من أرسله الله شاهدا ومبشرا ونذيرا. وداعيا
إلى الله بإذنه وسراجا منيرا سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن دعا بدعوته
إلى يوم الدين... وبعد:

فالقرآن الكريم هو كتاب الله الخالد، ومعجزة الرسول الباقية أنزله الله
على سيدنا محمد صلى الله علي وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور
ياذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وهو الكتاب المصدق لما سبق والمهيمن
عليه. قال تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ
وْمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾^(٢).

(١) الكهف: ١.

(٢) المائدة: ٤٨.

وهو الكتاب الوحيد من بين سائر كتب الله الذي تكفل الله بحفظه قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ^(١) فلم يصبه ما أصاب الكتب السابقة من التحريف والتغيير وانقطاع السند، فالقرآن الذي قرأه محمد صلى الله عليه وسلم هو نفس القرآن الذي نقرأه اليوم، والمكتوب بالمصاحف بالرسم العثماني، المنقول إلينا بالتواتر، جيلا بعد جيل. لم يغير منه حرف ولم تبدل منه كلمة. لأن التغيير ليس من طبيعته، إذ هو لله، وإنما الذي يتغير هو ما حول القرآن من أفهام الناس وآرائهم واجتهاداتهم.

ولا نطلق الكلمة معرفة «القرآن» إلا على جميعه، أما كلمة «قرآن» مجردة من حرف التعريف، فإنها تطلق على كله وعلى بعضه، فمن الأول قوله تعالى ﴿ وَفَرَّءْنَا مَا فَرَّقْنَاهُ لَتَقَرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ ^(٢).

ومن الثاني قولنا للآية الواحدة منه هذا «قرآن» ولا يصح أن يقال هذا «القرآن» وكما سمي قرآنا، سمي كتابا وفرقانا. لكن لفظ القرآن لم يطلق على غير المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم. بخلاف الكتاب والفرقان، فإنهما كما أطلقا على ما أنزل عليه، فقد أطلقا على ما أنزل على غيره. قال تعالى ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ^(٣).

ونحن حين نتحدث عن القرآن لا نقصد أن نحصي ما كتب حول القرآن، أو نعدد ما دونه العلماء من علومه، أو تفسيره، أو وجوه إعجازه، أو بيان فضائله وأحكامه وآدابه، فإن ذلك ليس في مقدور بشر.

وإنما قصدنا من وراء هذا البحث أن نبين مدى الحاجة إلى القرآن

(١) الحجر: ٩.

(٢) الإسراء: ١٠٦.

(٣) البقرة: ٥٣.

الكريم، وأن الإنسانية في ماضيها وحاضرها لا يمكن لها الاستغناء عنه، لأنه هاديتها ومرشدها إلى أقوم السبل ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (١).

وقد طبق المسلمون الأولون القرآن الكريم تطبيقاً عملياً، فكان دستورهم الذي يحتكمون إليه ومنهاج حياتهم ومبعث عزهم وفخرهم، ففتحوا بذلك البلاد ودانت لهم الرقاب، لا بالطغيان ولا بالصولجان، ولكن بتعاليم القرآن، واستطاعوا في فترة وجيزة من الزمن أن يكونوا لهم دولة وأن ينشروا لأنفسهم حضارة وأن ينشروا العلم والمعرفة في أرجاء الأرض، فسعدت بذلك الإنسانية قروناً طويلة.

هذا واقع يصدقه التاريخ ولا ينكره إلا كل جاحد أو مكابر.

واليوم ونحن ننظر إلى أحوال المسلمين بألم وحسرة فنراهم قد تخلفوا عن ركب التقدم والحضارة، وتأخروا كثيراً في ميدان العلم والمعرفة وبينهم وبين غيرهم فجوة حضارية وعلمية هائلة.

ونتساءل ما السبب في هذا التخلف؟ وما السر في هذا الانحدار الذي وصلت إليه الأمة؟ هل هو الإسلام أو تمسكها بالقرآن واحتكامها إليه؟ كلا، إن القرآن ربي أمة وأنشأ حضارة، لأنه هداية الله إلى الناس، فلا يمكن أن يكون سبباً في تخلفهم أو شقاءهم ﴿فَلِإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾ (٢). هذا هو السبب الحقيقي في الضلال والشقاء كما بيئته الآيات.

(١) الإسراء: ٩.

(٢) طه: ١٢٣ - ١٢٦.

وقد يقول قائل: لا حاجة لنا اليوم إلى القرآن، لأن العلم والعقل يمكن أن يهتدي بهما الإنسان ويعرف طريقه إلى الخير.

ونقول: إن علم البشر وحده لا يصلح أنفس الناس، لأنهم لا يخالفون أهواءهم وشهواتهم الشخصية إلى اتباع آراء أفراد منهم، وإنما يدينون بوازع الفطرة لما هو فوق معارفهم البشرية، وهو ما يأتيهم من ربهم ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى هداية القرآن.

والعقل مهما بلغ من القوة والذكاء ليس إلا حاسة من الحواس التي تربطنا بعالمنا المحدود، له مجاله الذي يعمل فيه، ويدرك حقائق الأشياء في محيطه^(١).

إن غاية ما يجنيه العقل من ثمرات بحثه المستقل فيه، بعد معاونة الفطرة السليمة له، هو أن يعلم أن فوق هذا العالم إليها قاهرا دبره، وأنه لم يخلقه باطلا، بل وضعه على مقتضى الحكمة والعدالة، فلا بد أن يعيده مرة أخرى لينال كل عامل جزاء عمله. إن خيرا وإن شرا، هذا كل ما يناله العقل الكامل من أمر الدين، أما القرآن فهو لا يقف من جانبه عند هذه المرحلة، بل نراه يشرح لنا حدود الإيمان مفصلة، ويصف لنا بدء الخلق ونهايته، ويصف الجنة وأنواع نعيمها، والنار وألوان عذابها، كأنهما رأى العين، حتى أنه ليحصي عدد الأبواب وعدد الملائكة الموكلة بتلك الأبواب، فعلى أي نظرية عقلية بنيت هذه المعلومات الحسابية وتلك الأوصاف التحديدية؟^(٢) إن ذلك مالا يوحى به العقل.

وإذا لم يكن ذلك من وحي العقل، فهو من وحي الله الذي لا يأتيه

(١) انظر الوحي المحمدي: ص ٤٠ وما بعدها وص ٣٥٢ والعلم يدعو للإيمان - ص ٢٥، ٢٦.

(٢) نظرات جديدة في القرآن: ص ٤٠.

الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وآخر وحي الله إلى خلقه هو القرآن الكريم، لذلك اخترت هذا العنوان: «القرآن وحاجة الإنسانية إليه» ليكون موضوع البحث. وقد اقتضت منهجية البحث أن أقسمه إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة:

المقدمة: تشمل التعريف بالقرآن وبيان الحاجة إليه.

الفصل الأول: كلمة عامة عن حال العالم قبل نزول القرآن ومقارنة ذلك بما عليه العالم اليوم من قرب أو بعد بالنسبة للقرآن.

الفصل الثاني: الحاجة إلى القرآن في مجال العقيدة.

الفصل الثالث: الحاجة إلى القرآن في مجال التشريع.

الفصل الرابع: الحاجة إلى القرآن في مجال الأخلاق.

ثم ذكر خلاصة موجزة لهذا البحث

ونحن لا نياس من العودة مرة أخرى إلى القرآن ليكون دستور حياتنا ومنهاج سلوكنا. وأن نحتكم إليه في كل ما يعرض لنا من مشكلات، وما يواجهنا في مسيرتنا من عقبات، وما يصيبنا في حياتنا من أمراض اجتماعية أو خلقية.. عند ذلك نجد فيه الحل الشامل والدواء الشافي لكل الأمراض.

وكما صلح أول الأمة بالقرآن، فإنه لا يصلحها في حاضرها ومستقبلها إلا القرآن، والله نسأل أن ينفعنا بالقرآن، وأن يشرح صدورنا للقرآن، وأن يسدد على طريق الخير خطانا، وأن يلهمنا الرشد والصواب، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنبت.. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم.

الفصل الأول

وصف عام لحال العالم قبل نزول القرآن

إن نظرة عامة إلى حال العالم قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقبل نزول القرآن الكريم تكشف لنا عن مدى الحيرة والضلال الذي كان يسود العالم بصفة عامة، والجزيرة العربية بصفة خاصة. من ضلال في العقيدة وفساد في الفطرة، وابتعاد عن الديانات الموروثة من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، حتى الديانتين السابقتين على الإسلام: اليهودية والمسيحية. فقد انحرف أتباع الديانتين فأدخلوا عليهما ما ليس منهما.

فاليهود على حفظهم لأصل عقيدة التوحيد، قد غلب عليهم التشبيه، وغاب عنهم أن يجمعوا بين النصوص المتشابهة في صفات الله وبين عقيدة التنزيه، فقد جعلوا الله كالإنسان، يتعب ويندم على ما فعل، كخلقه الإنسان، لأنه لم يكن يعلم أنه سيكون مثله أو مثل الآلهة. وزعموا أنه كان يظهر في شكل الإنسان حتى إنه صارع إسرائيل، ولم يقدر على التفلت منه حتى باركه فأطلقه وعبدوا بعلا وغيره من الأصنام.

والنصارى جددوا من عهد قسطنطين الوثنيات القديمة، واتخذوا المسيح ربا وإلهًا، وعبدوا القديسين وصورهم، حتى صارت كنائس النصارى كهياكل الوثنية الأولى، مملوءة بالصور والتماثيل المعبودة، على أن عقيدة التثليث والصلب والفداء التي جعلوها أساس الدين، بل الدين كله، هي عقيدة الهنود في جملتها وتفصيلها، وهي مدعومة بفلسفة خيالية غير معقولة، وبنظام يقوم بتنفيذه الملوك والقيصرة، وتبذل في سبيله القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ويربى عليه الأحداث في الصغر تربية وجدانية خيالية لا تقبل حجة ولا برهانًا، فغمر الشرك بالله هذه الأرض بطوفانه، وطغت الوثنية على أهلها^(١).

(١) الوحي المحمدي: ص ١٦٩، وانظر سفر التكوين.

وقد وقع بين النصارى شقاق رهيب في طبيعة المسيح، ووصفه، ووضع أمه من الإله الكبير، وقد أثار هذا الخلاف بينهم الحروب المهلكة وقسمهم فرقا وأحزابا يلعن بعضها بعضا^(١).

ومن أشهر هذه الفرق: اليعقوبية، وكانت منتشرة في مصر والنوبة والحبشة، والنسطورية: وكانت منتشرة في الموصل والعراق وفارس، والملكانية: وكانت منتشرة في بلاد الغرب وصقلية والأندلس والشام.

فاليقوبية: كانوا يرون: أن المسيح هو الله، وأن الله والإنسان اتحدا في طبيعة واحدة هي المسيح.

والملكانية والنسطورية: قالوا: إن للمسيح طبيعتين متميزتين: الطبيعة اللاهوتية، والطبيعة الناسوتية. وإن اختلفت الطائفتان فيما عدا ذلك من التفاصيل^(٢).

وإذا حدث هذا بالنسبة لأهل الكتاب «اليهود والنصارى» فانهراف غيرهم ممن لا يدينون بدين سماوي يكون أشد وأعظم.

وإذا تركنا أهل الكتاب وما وقعوا فيه من شرك وضلال في أصل العقيدة وانتقلنا إلى الفرس. نجد أنهم أسوأ حالاً من غيرهم في هذه الناحية.

فقد فتنوا بالمظاهر الطبيعية من السماء الصافية، والضوء، والنار، والهواء.

والماء ينزل من السماء، كل هذه المظاهر جذبت أنظارهم وجعلتهم يعبدونها على أنها كائنات إلهية، كما أن الجذب والظلمة ونحوهما: كائنات إلهية شريرة ملعونة. ووقفوا أمام آلهة الخير يستمدون منهم المعونة ويسبحون بحمدهم ويقدمون لها الضحايا، كما اعتقدوا أن آلهة الخير في نزاع دائم مع

(١) فقه السيرة للغزالي: ص ٦٤ - ٦٥. والوحي للمحمدي: ص ١٧٠.

(٢) فجر الإسلام: للأستاذ أحمد أمين: ص ٩٩.

آلهة الشر، وأن أعمال الإنسان من صلاة ونحوها تعين آلهة الخير في منازلها
آلهة الشر، واتخذوا النار رمزا لآلهة الخير يشعلونها في معابدهم، وينفخونها
بإمدادهم حتى تقوى على آلهة الشر وتنتصر عليها.

كما كانوا ينظرون إلى ملوكهم كأنهم كائنات إلهية اصطفاهم الله
للحكم بين الناس، وخصهم بالسعادة وأيدهم بروح من عنده، فهم ظل الله في
أرضه. أقامهم على مصالح عبادته، وليس للناس قبلهم حقوق، وللملوك على
الناس السمع والطاعة^(١).

أما بلاد العرب، فقد تعددت فيها الديانات، واختلفت اختلافاً
متبايناً وتأثرت عادة بما جاورها من البلاد، ذكر اليعقوبي «أن أديان العرب كانت
مختلفة بالمجاورات لأهل الملل والانتقال إلى البلدان والاتجاهات»^(٢).

وقد أخذ الغرب عن الأمم التي اتصلوا بها كثيراً من آلهتها
ومعتقداتها مثل اليهودية، والمسيحية، والمجوسية، والصابئة، والوثنية، التي
كانت العامة والغالبة في شبه الجزيرة العربية.

وقد نزع العرب إلى تكريم الحجارة المقدسة، أو المؤلهة - كما يقول
بعض المؤرخين، تكريماً لا يختص بقبيلة دون أخرى، ولا ينفرد به بلد دون
آخر^(٣).

وكانت الحجارة التي تكرمها القبائل مأخوذة من أصل الحرم المكي،
وفي ذلك يقول ابن هشام عن ابن اسحاق «ويزعمون أن أول ما كانت عبادة
الحجارة في بني إسماعيل: أنه لا يظعن منهم ظاعن من مكة، حينما ضاقت
عليهم والتمسوا الفسح في البلاد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً

(١) فجر الإسلام: ٩٩ وما بعدها.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ج ١ ص ٢١١.

(٣) الاشتقاق لابن دريد: ص ٤٦.

للحرم. فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة، حتى بلغ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنتوا من الحجارة وأعجبهم»^(١).

والحجارة التي كانوا يعبدونها نوعان:

النوع الأول: هو الحجارة المحمولة أو المنقولة.

النوع الثاني: هو الحجارة الثابتة التي لا ترحل من مكانها كالمعابد الخاصة.

ويقال لكل صنم من حجر أو غيره: صنم، ولا يقال: وثن، إلا لما كان من غير صخرة: كالنحاس ونحوه، وكان عمرو بن لحي حين غلبت خزاعة على البيت ونفت جرهم عن مكة، قد جعلته العرب ربا، لا يتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة، لأنه كان يطعم، الطعام ويكسو الناس في الموسم، فرموا نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة، وكَسَا عشرة آلاف حلة. وهو أول من أدخل الأصنام في الحرم، وحمل الناس على عبادتها^(٢).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، كان أول من سيب السوائب» وعن أحمد عن أبي هريرة بزيادة (وبحر البحيرة) وانظر تفسير ابن كثير ج ٢.

وكان أول من غير دين إسماعيل عليه السلام، فنصب الأوثان وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وبحر البحيرة، وحمى الحامي^(٣).

(١) سيرة ابن هشام: ٥١.

(٢) الروض الأنف: ج ١ ص ٣٥٧.

(٣) الأصنام للكليبي، تحقيق أحمد زكي: ص ٨.

وقد أبطل القرآن هذه المعتقدات الفاسدة، وبين في وضوح أن هذا افتراء وكذب. فقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١).

قال ابن هشام «حدثني بعض أهل العلم: أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره. فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العمالق رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدونها؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا. ونستنصرها فتنصرنا. فقال لهم: ألا تعطوني صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه؟ فأعطوه صنماً يقال له: (هبل)، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه» (٢).

من هذا نعلم أن عبادة الأصنام لم تكن قاصرة على العرب فحسب، وإنما كانت العبادة السائدة حينذاك في معظم البلدان المجاورة، وهذا يؤيد ما ذكره اليعقوبي من أن أديان العرب كانت مختلفة بالمجاورات لأهل الملل والانتقال إلى البلدان، وهبل هذا هو الذي كان يفخر به أبو سفيان يوم أحد.

وعن أبي رجاء العطاردي: قال: «كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجراً جمعنا حليته من التراب وجئنا بالشاة فحلبناها عليه ثم طفنا بها» (٣).

إلى هذا الحد بلغ تعلقهم بالأصنام. وأصبحت عبادتها جزءاً من حياتهم بل بلغ بهم الأمر من تعظيمهم للأصنام واعتقادهم فيها أن اتخذ أهل كل دار من مكة صنماً في دارهم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به كذلك.

وكان الحارث بن قيس: من بني سهم، إذا وجد حجراً أحسن من

(١) المائدة: ١٠٣.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير: ج ٢ ص ١٨٨.

(٣) المصدر السابق.

حجر أخذه فعبده^(١). ويصدق عليه قول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهِهُ هَوًى﴾^(٢).

ومن أشهر الأصنام عند العرب: إساف ونائلة «قيل: إنهما رجل وامرأة، من جرهم، وأن إسافا وقع عليها في الكعبة، فمسخا حجرتين، فأخرجتا إلى الصفا والمروة فنصبا عليهما، ليكونا عبرة وعظة، فلما كان عمرو بن لحي نقهلهما إلى الكعبة، ونصبهما على زمزم، فطاف الناس بالكعبة وبهما، حتى عبدا من دون الله»^(٣).

وذكر المسعودي: (أن إسافا ونائلة حجرتان نحتا ومثلا بالفاجرين)^(٤).

وهذا الرأي الذي ذكره المسعودي أقرب إلى الصواب. وقد تخرج الأنصار من الطواف بين الصفا والمروة بعد الإسلام مخافة أن يفعلوا عملاً من أعمال الجاهلية، لوجود الصنمين عليهما. فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾^(٥).

ومن أقدم الأصنام وأشهرها عند العرب: مناة واللات، والعزى. وكانوا يقولون: إنها بنات الله، وهن يشفعن إليه، فلما نزل القرآن أنكر عليهم ذلك أشد الإنكار فقال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾^(٦) وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ ﴿٧﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٨﴾ تِلْكَ إِذْ أَوَسَّيْتُ صِغْرِي ﴿٩﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَىٰ

(١) الاشتقاق: ص ١٢٢.

(٢) الجاثية: ٢٣.

(٣) الروض الأنف: ج ١ ص ٣٦٤.

(٤) مروج الذهب: ج ٢ ص ٥٠.

(٥) البقرة: ١٥٨.

أَلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴿٢٢﴾ ﴿٢٣﴾ (١).

ولم تقتصر عبادة العرب على تلك الأصنام، بل عبدوا غيرها مما نقل عن غيرهم، وكان أشهرها ما عرف عند قوم نوح عليه السلام (٢). وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢٢﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٤﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٥﴾﴾ (٣).

ذكر البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعده، وهي أسماء قوم صالحين من قوم نوح»، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسونها أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنوسح العلم عبت» (٤).

والعرب الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له. قالوا في سخرية وتعجب ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿١﴾ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٢﴾ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٣﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِمَّةٍ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٤﴾﴾ (٥).

ويعنون بالآلهة الأصنام التي كانوا يعبدونها. وليس ذلك بالأمر

(١) النجم: ١٩ - ٢٣.

(٢) معجم البلدان لياقوت: ص ١٧٠.

(٣) نوح: ٢١ - ٢٤.

(٤) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٢٧.

(٥) ص: من ٤ - ٧.

المستغرب على هؤلاء الكفار، فقد سبقهم إلى جرمهم هذا الطغاة في كل عصر والظالمون في كل زمان، ومع كل رسول يدعوهم إلى الله قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ (٥٢) أَتَوَصَّوْنَ بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ (١).

وكان لقضاة ولخم وخزام وعاملة وغطفان وأهل الشام صنم يقال له الأقيصر. وكانوا يحجون إليه ويحلقون رؤوسهم عنده» (٢).

ومن الأصنام التي كانت موجودة وجاء ذكرها في القرآن الكريم (آزر)، وكان تارح أبو سيدنا إبراهيم سادنا له. عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر، وإنما كان اسمه تارحا، وقال مجاهد والسدي: آزر اسم صنم، وقال ابن كثير: كأنه غلب عليه آزر لخدمته ذلك الصنم» (٣).

ومن الأصنام (الإلهة) هكذا في سائر نسخ القاموس، والصحيح بهذا المعنى الآلهة بصيغ الجمع.

وبه قرئ قوله تعالى ﴿وَيَذَرَكْ وَءَاهَتَكَ﴾ (٤). وهي القراءة المشهورة. قال الجوهري: وإنما سميت الآلهة الأصنام، لأنهم اعتقدوا أن العبادة تحق لها وأسماءهم تتبع اعتقاداتهم لا ما عليه الشيء في نفسه» (٥).

ومن الأصنام القديمة التي عبدها العرب وجاء ذكرها في القرآن الكريم (بعل) وهو اسم صنم كان لقوم إلياس عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَإِنْ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٦) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦١﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ

(١) الذاريات: ٥٢ - ٥٣.

(٢) معجم البلدان: ص ٢٣٨.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير: المجلد الأول: ص ٥٩١.

(٤) الأعراف: ١٢٧.

(٥) الأصنام: ص ١٧.. مقدمة المحقق نقلا عن تاج العروس.

﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴿١﴾.

قال مجاهد في تفسير الآية: «أي أتدعون إليها سوى الله، وقال الراغب وسمى العرب معبودهم الذين يتقربون به إلى الله بعلا لاعتقادهم الاستعلاء فيه»^(٢). وليس هذا كل ما كان عند العرب من الأصنام والأوثان والإرث القديم من العادات السيئة والضلال المبين. وإنما هو قليل من كثير مما يصور لنا الحال التي كانوا عليها.

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إذا شرك أن تعلم جهل العرب فاقراً ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾»^(٣).

نعم: إن هذا الضلال في العقيدة قد سد على العربي كل منافذ التفكير وحجب عنه الآفاق التي لم يطمع يوماً إلى مد بصره إليها، سواء في عالم الأخلاق والضمائر، أو في عالم السياسة والاجتماع والاقتصاد. فقد طغت الوثنية على كل مرافق الحياة وشدت العربي شداً إلى الأرض. حتى وجدناه لا يطمئن في حله وترحاله، إلا أن تكون إلى جواره قطعة من حجر يعبدها ويتمسح بها ويتقرب إليها.

إن هذا الاعتقاد شد أبصارهم إلى أسفل وربط على أعينهم، فلم يعودوا يطمعون إلى ما وراء مواضع أقدامهم، أو يتفكرون بما يمكن أن يكون وراء جدران الآلهة والمعابد والأوثان، أي أنه جهد عقولهم وقدرتهم على التأمل العقلي والتفكير الدائم والتعلم الصحيح، كما حجب أرواحهم ومطامحهم

(١) الصفات: ١٢٣ - ١٢٦.

(٢) الأصنام: ١٠٨. وانظر تفسير الآية من ابن كثير ج ٤ ص ٢١.

(٣) الأنعام: ١٤٠.

الأخلاقية الكبرى وسحق الكثير من قيمهم الإنسانية، حتى شل قدرتهم على الحركة في شتى ميادين الحياة. ابتداء من أعماق النفس والفكر والضمير، وانتهاء بأطراف الأرض، مروراً بالعوالم السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وجاء الإسلام، فتهاوت جدران الوثنية، وتساقت الأرباب، وتفتت حجارتها الصماء تحت الأقدام المتحركة صوب أهدافها الكبرى وفتح المسلمون أعينهم، فإذا بالسد الذي حجب عنهم الرؤية والحركة قد انزاح، وامتد الطريق أمامهم مستقيماً واضحاً، وخرج المسلم من الصحراء لكي يصوغ حضارته الجديدة وعلمه الذي أشعلته في ذهنه فتيلة الإيمان. وانطلق إلى العالم مع إخوانه يحمل تعاليم القرآن وهدى الرسول الكريم تثبيتاً لمفاهيم التوحيد في كل مكان ونشراً للعدل والمساواة في كل أرض وتفجيراً للطاقات الحضارية والعلم الصحيح^(١).

ونتساءل هنا: من فتح أمامهم هذا الطريق؟ ومن كشف تلك الغشاوة التي غطت العيون والأبصار؟ ومن فجر تلك الطاقات؟ ومن أيقظ هذا العقل؟ ومن حرك هذا الوجدان؟

أو بعبارة موجزة: من صاغ هذا الإنسان الجديد؟

إنه القرآن الذي أحيا الله به القلوب بعد موتها ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾^(٢).

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ

سَبِيلِهِ﴾^(٣).

(١) تهافت العلمانية: ص ٤٠ وما بعدها بتصرف.

(٢) الأنعام: ١٢٢.

(٣) الأنعام: ١٥٣.

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾.

وقد صور ابن القيم حالة العالم قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وقبل نزول القرآن في عبارة موجزة وهو يعرض لذكر أسماء الرسول ومنها: الماحي يقول «فالماحي الذي محا الله به الكفر، ولم يمح الكفر بأحد من الخلق ما محى بالنبي صلى الله عليه وسلم، فإنه بعث وأهل الأرض كلهم كفار، إلا بقايا من أهل الكتاب، وهم ما بين عباد أوثان، ويهود مغضوب عليهم، ونصارى ضالين وصابئة دهرية لا يعرفون ربا ولا معادا، وبين عباد الكواكب وعباد النار، وفلاسفة لا يعرفون شرائع الأنبياء ولا يقرون بها، فمحا الله سبحانه برسوله ذلك حتى ظهر دين الله على كل دين، وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار، وسارت دعوته مسير الشمس في الأفطار» (٢).

إن الفئة القليلة من أهل الكتاب التي سارعت إلى اتباع الرسول والإيمان بالقرآن: هي الفئة التي كان عندها بقية من هداية السماء، وكانت تنتظر أن يأتي هذا الرسول المكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، فلما جاءهم هذا الرسول آمنوا به، وكانوا بهذا الموقف منصفين لأنفسهم ولغيرهم، ولقد اعترف القرآن الكريم لهم بهذا الموقف الكريم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٣﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ

(١) إبراهيم: ١٠.

(٢) زاد المعاد: المجلد الأول: ص ٢٣.

(٣) العنكبوت: ٤٧.

وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٩) (١).

وقال تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ (٢). وغير ذلك من الآيات كثير. التي تكشف عن خيانتهم لكل العهود والمواثيق التي أخذت عليهم وهؤلاء المعنيون (بالمغضوب عليهم والضالين).

أما عرب الجزيرة، فلم يقتصر أمرهم على الشرك بالله واتخاذ الأصنام والأوثان، بل كانت هنالك فوضى في كل المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية. وقد صور تلك الحالة جعفر بن أبي طالب أكمل تصوير حين سأله النجاشي: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من هذه الملل؟.

فقال له جعفر: «أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا

(١) البقرة: ٨٩.

(٢) البقرة: ١٠٩.

نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - وعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله. فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا.

فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورجبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.. فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟

فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشي: فاقراه علي. فقرأ عليه صدرًا من (سورة مريم) فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى خضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. ثم قال لوفد قريش: انطلقا. فلا والله لا أسلهم إليكما ولا يكادون^(١).

عن أم سلمة بنت أمية بن المغيرة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث طويل.

هذا وصف لحال العالم بصفة عامة والجزيرة العربية بصفة خاصة قبل نزول القرآن.

وجاء القرآن لكي ينفي ما علق بأذهان الناس من الأوهام والخرافات والبدع والمنكرات التي أفسدت حياة الناس فجمدت عقولهم عن التفكير وحصرتهم في نطاق ضيق من عبادة حجر أو صنم، ومن تعظيم للصور والتماثيل

(١) تهذيب سيرة ابن هشام: للأستاذ عبد السلام هارون : ص ٩٥ وما بعدها. وأنظر فقه السيرة، وفجر الاسلام، والبداية والنهاية لابن كثير مع اختلاف يسير في اللفظ.

أو التعويل على المعبد والكاهن في كل صغيرة أو كبيرة من شعائر العبادة.

جاء بالعقيدة الشاملة التي تجمع بين مطالب الروح ومطالب الجسد وترتقي بالإنسان إلى حيث أريد له من الكرامة والرفعة، ليكون أهلاً للخلافة في الأرض، وهذا هو السر في تحول كثير من الأمم والشعوب عن عقائدهم إلى عقيدة الإسلام.

يقول العقاد^(١): «وشمول العقيدة الإسلامية هو الذي حقق للإسلام ما لم يتحقق لعقيدة غيره من تحويل الأمم العريقة التي تدين بالكتب المقدسة إلى الإيمان به عن طوعية واختيار. كما آمنت به بعض الأمم المسيحية والمجوسية والبرهمية في مصر وسوريا وفارس والهند والصين».

«وإنما تفضل الديانة سواها بمقدار شمولها لمطالب الروح وارتقاء عقائدها وشعائرها في آفاق العقل والضمير، وكذلك كانت الديانة الإسلامية – التي جاء بها القرآن – ملة لا تفضلها ملة في شمول حقائقها وخلوص عباداتها وشعائرها من شوائب الملل الغابرة»^(٢).

إن القرآن الكريم رسم للناس المنهاج القويم الذي يكفل لهم سبقاً عظيماً وتقدماً حضارياً كبيراً. إذا هم التزموا به وطبقوه تطبيقاً عملياً صحيحاً. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا يَا تَبِئَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾^(٣).

ونحن إذا نظرنا إلى واقع العالم اليوم، نجد أن الذين لا يدينون بالإسلام ولا يؤمنون بالقرآن هم الذين يمسكون بزمام الأمور، ويتحكمون في مقدرات العالم ويملكون كل وسائل التقدم والرقي والرفاهية. وهذا ما أغرى الكثير من أتباع الإسلام إلى الافتتان بهم والسير في ركابهم والصاق التهم

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه: ص ١٧ .

(٢) المصدر السابق: ١٦ .

(٣) طه: ١٢٣ .

بالإسلام والمسلمين لتخلفهم عن ركب التقدم والحضارة زاعمين أن ذلك التخلف والتأخر سببهما الإسلام.

ونقول ابتداء لهؤلاء:

«لا يصح أن تقاس حضارة الإنسان بمقدار ما يتوصل إليه من تقدم في ابتكار الوسائل المادية التي تخدم الجسد وتحقق لذاته، ومتعه، وراحته، وقوته، واختصار الزمن له، وتقريب المسافات.

ذلك لون من ألوان الحضارة يتناول جانباً من جوانب النشاط الإنساني، وهو الجانب المادي، ولا يرتقي هذا النشاط المادي في سلم الخير ما لم يرافقه تقدم حضاري اجتماعي ونفسي وفكري، ضمن الأسس الدينية الربانية، وكثيراً ما تصاب الإنسانية بويلات جسام نتيجة لسبق حضاري مادي مجرد عن حضارة خلقية وروحية. فيكون هذا السبق المادي وسيلة للطغيان وخراب العمران، والإفساد في الأرض»^(١).

وقد قص علينا القرآن الكريم طرفاً من سيرة أقوام بلغوا شأواً بعيداً في التقدم والحضارة، لم تسبقهم إليه أمة من الأمم. ولكن غلب عليهم الطغيان والإفساد في الأرض، فأهلكهم الله وخرب ديارهم، وأصبحت أثراً بعد عين..

نقرأ قوله تعالى في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾^(٢).

صحيح أن الإنسان في هذا العصر قد حقق سبقاً حضارياً هائلاً،

(١) أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها: ص ١٧.

(٢) الفجر: ٦ - ١٤.

وتقدماً علمياً رائعاً حتى اتسم هذا العصر بعصر العلم والتقدم.
ولكن، هل حقق إنسان هذا العصر السعادة والاطمئنان النفسي له
وللإنسانية بصفة عامة؟.

الجواب على هذا السؤال يكون بالنفي بشهادة الواقع والتاريخ،
فالحروب والمظالم التي يعاني منها العالم اليوم خير شاهد على ذلك. وما
ينفق على آلات الحرب والفتك والدمار أكبر بكثير مما ينفق في إسعاد البشر
وراحتهم وتخفيف الآلام عن كاهلهم.

وأن هذا التقدم الحضاري لم يستطع أن يعالج الأمراض الخلقية
والاجتماعية التي تفشت بشكل مخيف في جسم الإنسانية حتى في أرقى
شعوب الأمم تقدماً وحضارة.

ولا علاج لتلك الأدوية وهذه الأمراض إلا بالرجوع إلى القرآن، فهو
وحده الشفاء من كل داء.

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا
كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾
يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ
وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾^(١).

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي
الْصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾^(٢). وقال: ﴿أَفَكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ وَمَنْ
أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾^(٣).

إن الإسلام أعظم موارث العالم، وإن كتابة الحصن الحصين للوحي

(٣) المائدة: ٥٠.

(٢) يونس: ٥٧.

(١) المائدة: ١٥ - ١٦.

الإلهي كله من بدء التاريخ إلى قيام الساعة، ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (١). وإن أمته بولائها له وعملها به خير أمة أخرجت للناس، وإن هذا الدين خط مجراه في أديم الأرض. وغالب الجنادل التي اعترضته، ومضى في طريقه شديد البأس. ولا يزال موارد العباب، قديراً على المضي إلى غايته، وأسباب البقاء تكمن في الرباط الوثيق بالقرآن الكريم، والعودة إليه كلما أبعدتنا موجة عاتية عنه (٢).

ونقول أخيراً: لا يمكن أن نحكم على الإسلام من خلال النظر إلى واقع المسلمين اليوم، فإن هذا الواقع أليم، لقد تفرق المسلمون شيعاً وأحزاباً وأصبحوا أمماً بعد أن كانوا أمة واحدة - يضرب بعضهم رقاب بعض ويستحل الواحد منهم مال أخيه، بل دمه وعرضه، وأهملوا تعاليم القرآن في مجال السياسة والحكم والاقتصاد والاجتماع، وأعمال العقل. والبحث والنظر والأخذ بأسباب العلم والتقدم، فتأخروا عن ركب الحضارة وأصبحوا عالة على غيرهم بعد أن كانوا سادة العالم وقادة الشعوب وليس ذلك بسبب الإسلام أو تمسكهم بالقرآن، بل السبب الوحيد هو الابتعاد عن القرآن وإهمال تعاليم الإسلام.

لقد حث القرآن على تحريك العقل في كثير من الآيات لأنه المفتاح الذي منحه الله لبني آدم ليقترحموا به أبواب الملكوت ويدخلوا ساحة الإيمان بالله الذي سخر لهم ما في السماوات والأرض ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٣). وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٤).

(١) البقرة: ٢.

(٢) المحاور الخمسة للقرآن، الشيخ الغزالي: ص ١٤٢ - ١٤٣.

(٣) العنكبوت: ٤٣.

(٤) الحج: ٤٦.

لقد ظهر الإسلام في إبان دولة الكهانة والمراسم، وواجه أناساً من الوثنيين أو من أهل الكتاب الذين صارت بهم تقاليد الجمود إلى حالة كحالة الوثنية في تعظيم الصور والتماثيل والتعويل على المعبد والكاهن في كل صغيرة وكبيرة من شعائر العبادة^(١). واستطاع الإسلام بكتابة أن يحول تلك الشعوب إلى رحابه ويدخلهم في ساحته.

وبفضل هذا القرآن. استطاع المسلمون أن يصمدوا أمام الغزوات والضربات الموجعة التي وجهت إليهم على مر العصور والأزمان، وما ذلك إلا بفضل تمسكهم بالقرآن ورجوعهم إليه في كل أمر من أمورهم، ولن يعود لهم مجدهم الذي فقدوه وعزتهم التي حرموا منها إلا إذا عادوا إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(٢)

إنه الدين العام الشامل الذي يشمل الأمم الإنسانية جميعاً، كما تشمل عقيدته النفس والإنسانية بجملتها من عقل وروح وضمير.

ولا يوجد في الأرض دين عام كامل صحيح ثابت إلا دين الإسلام الصالح لكل زمان ومكان، كما لا يوجد كتاب سماوي خالد صحيح محفوظ من التحريف والتغيير إلا القرآن. الذي جاء بالحق والعدل والمساواة التي تعطي لكل شعب وكل فرد حقه، فيه وحده يمكن البرء من الأدواء كلها على اختلاف أنواعها.

(١) الإسلام في القرن العشرين: ص ٢٣.

(٢) الأنفال: ٢٤.

الفصل الثاني

الحاجة إلى القرآن في مجال العقيدة

العقيدة: «ما انعقد عليه القلب، وتمسك به، وتعذر تحويله عنه، لا فرق في ذلك بين ما كان راجعاً إلى تقليد أو وهم، وما كان راجعاً إلى دليل عقلي»^(١).

وفي اصطلاح المتكلمين: «التصديق الجازم المطابق للواقع الناشيء عن دليل» وهي الجانب النظري الذي يطلب الإيمان به أولاً وقبل كل شيء إيماناً لا يرقى إليه شك ولا تؤثر فيه شبهة»^(٢).

وقد عبر عنها القرآن بالإيمان. كما عبر عن الشريعة بالعمل الصالح في كثير من آياته مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۖ ﴿٧﴾ ﴿٣﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴿٥﴾

والعقيدة والشريعة في الإسلام مثلاً زمتان لا تنفرد إحدهما عن الأخرى والعقائد الأساسية في الإسلام يجمعها قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾^(٦).

(١) محاضرات في التوحيد للشيخ علي حسب الله - ط - القاهرة ١٩٥٢.

(٢) الإسلام عقيدة وشريعة: ص ١٢.

(٣) الكهف: ١٠٧.

(٤) النحل: ٩٧.

(٥) الأحقاف: ١٣.

(٦) البقرة: ١٧٧.

وهي عقائد كل دين سماوي، فالأديان التي لا تبنى عليها - أديان باطلة، ولا وزن لها في حكم الإسلام.

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾^(١) ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾^(٢).

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٣).

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفَرِقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٤).

فتوحيد الله هو أصل الأصول لا يجهله مسلم أيا كان جنسه أو لونه، أو طبقته أو حظه من التعلم، فقد عرف من كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» أن لا مكان في الإسلام لتأليه بشر أو حجر أو شيء في الأرض أو في السماء، بل الله من في السماوات ومن في الأرض»^(٥).

من أجل هذا أمر الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يدعو

(١) الشورى: ١٣.

(٢) النساء: ١٦٣.

(٣) الأنبياء: ٢٥.

(٤) البقرة: ١٣٦.

(٥) الخصائص العامة للإسلام - د/ القرضاوي.

أهل الكتاب الذين انحرفوا عن هذه العقيدة الحقّة ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (١).

إن هذه العقيدة تمتاز بالصفاء والنقاء والبعد عن التعقيد. وتتقبلها الفطر السليمة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

وقد صرح كثير من العلماء الغربيين بأن سهولة فهم هذه العقيدة وموافقتها للعقل والفطرة هما السبب الأكبر لقبول الأمم لها وانهمزام النصرانية أمامها (٣).

وتنفرد العقيدة الإسلامية من بين سائر العقائد بأنها عقيدة شاملة «فهي توحى إلى الإنسان أنه كل شامل فيستريح من فصام العقائد التي تشطر السريرة شطرين ثم تيعا بالجمع بين الشطرين على وفاق» (٤). إنها تلبي مطالب الروح كما تلبي مطالب الجسد فلا يكون المسلم مسلماً لأنه روح تنكر الجسد، أو لأنه جسد ينكر الروح، ولا يكون مسلماً وهو يطلب الآخرة دون الدنيا، كما لا يكون مسلماً وهو يطلب الدنيا دون الآخرة.

وهذه العقيدة الشاملة هي التي أفردت الإسلام بمزية لم تعهد في دين آخر من الأديان الكتابية «فإن تاريخ التحول إلى هذه الأديان لم يسجل لنا قط تحولا إجماعيا إليها من دين كتابي آخر بمحض الرضى والافتناع إذ كان

(١) آل عمران: ٦٤.

(٢) الروم: ٣٠.

(٣) الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا: ص ١٧٤.

(٤) الإسلام في القرن العشرين، العقاد: ص ٢٢.

المتحولون إلى المسيحية أو اليهودية قبلها في أول نشأتها، إما وثنية على الفطرة، لا تدين بكتاب، ولم تعرف قبل ذلك عقيدة التوحيد أو الإله الخالق المحيط بكل شيء، ولم يحدث قط في أمة من الأمم ذات الحضارة العريقة أنها تركت عقيدتها لتتحول إلى دين كتابي غير الإسلام»^(١).

قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٢) ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾^(٣). ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾^(٤)

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾^(٥) ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٥).

وحين يتحدث القرآن عن الله يتخذ اسلوباً سهلاً قريباً من الفطرة سريعاً إلى العقل بعيداً عن الغموض والتعقيد، مفعماً بالوضوح والإشراق.

نقرأ هذه الآيات:

﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾^(٦) ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

(١) الإسلام في القرن العشرين، العقاد: ص ٣٤.

(٢) القصص: ٧٧.

(٣) الأعراف: ٣٢.

(٤) الملك: ١٥.

(٥) البقرة: ١٦٨ - ١٦٩.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٦﴾ قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿١٧﴾ (١).

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٦﴾ قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ أَتُخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ ﴿١٧﴾ ﴿٢﴾ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٣﴾.

وهذا هو السر الحقيقي في تحول الأمم والشعوب إلى هذا الدين، وانتشاره بين شعوب الأرض بسرعة مذهلة لم يُعهد لها مثيل في تاريخ الأديان، وهذه السرعة وهذا التحول أشبه بالثورة التي حررت العقل البشري والإرادة الإنسانية من رق المنتحلين لأنفسهم صفة الربوبية، أو النيابة عن الرب الخالق تعالى، في التحكم والهيمنة والسيطرة على قلوب الناس وعقولهم، وما كان ذلك ليحدث إلا بالقرآن. الذي اقتلع من العالم الإنساني ما دنس فطرته من رجس الشرك والوثنية، وما أفسد عقله وذهب باستقلال فكره من البدع والتقاليد والأوهام والخرافات التي أحالت توحيد الأنبياء السابقين سركا، وحققهم باطلا، وهذا يتهم غواية، مثل هذه الثورة الإنسانية لا يمكن أن تحدث إلا على قاعدة القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ ﴿٤﴾.

قد يقول قائل: إن الاعتقاد بالله يكاد يكون عاما بين الشعوب جميعاً، فلا تكاد تخلوا أمة من أمم الأرض على اختلاف مستوياتها من الناحية الفكرية والحضارية من اعتقاد ياله. وهذا صحيح، ولكن فكرة الألوهية وأوصاف الإله،

(١) الزمر: ٦٢ - ٦٤.

(٢) الأنعام: ١٣ - ١٤.

(٣) النور: ٣٥.

(٤) الرعد: ١١.

والحضارية من اعتقاد ياله. وهذا صحيح، ولكن فكرة الألوهية وأوصاف الإله، وما يجب له، وما يستحيل عليه تختلف اختلافاً كبيراً بين الأمم، فمنهم من اتخذ الصنم والحجر، ومنهم من اتخذ الكواكب والنجوم، ومنهم من اتخذ الأبحار والرهبان، ومنهم من اتخذ الهوى. وقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَسْرَارًا أَخَذُضْنَا مَاءَ الْهَيْةِ إِنِّي أَرِنَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ (١) وَقوله ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ (٢) وَأَنْطَلَقَ الْمَلَائِكَةُ مِنْهُمْ أَنْ آمَنُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ الْهَيْكَلِ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝ (٣) وَقوله: ﴿أَتَّخِذُوا أَجْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ (٤) وَقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ آتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَفَّيْهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاةً فَن يَبْصُرُ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ (٥)﴾.

والقرآن الكريم هو الذي يصحح لنا تلك الفكرة ويصف لنا الله ويعرفنا بما يجب علينا نحوه، فهو إله واحد، فليس هناك إله للخير، وإله للشر، وليس هناك إله للنور، وإله للظلمة، وليس هناك إله للجمال، وإله للرياح، وليس هناك من يشاركه في ألوهيته أياً كان ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ۝ (٦)﴾.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ. إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارْهَبُونَ ۝ (٧)﴾. ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۝ (٨)﴾.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۝ (٩)﴾. ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ (١٠)﴾.

(٣) التوبة: ٣١.

(٢) ص: ٥ - ٦.

(١) الأنعام: ٧٤.

(٦) النحل: ٥١.

(٥) محمد: ١٩.

(٤) الجاثية: ٢٣.

(٩) البقرة: ١٦٣.

(٨) المائدة: ٧٣.

(٧) النساء: ٣٦.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾^(١).

وهكذا في كثير من الآيات التي تذكر لنا الإله بأسمائه وصفاته ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(٢).

﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾^(٣)

ولا يمكن للإنسان أن يعرف هذه الأسماء إلا عن طريق القرآن، لأن أسماء الله لا دخل للإنسان فيها، وليس للعلم أن يناجي ربه باسم أو صفة لم يضعه الله لنفسه فهو أعلم بما يدل على ذاته وآثار صفاته، ولا يعرف ذلك إلا عنه سبحانه عن طريق القرآن أو السنة المطهرة.

والقرآن: يوجه الإنسان إلى النظر والتفكير فيما خلق الله في هذا الكون، ويصرفه عن محاولة التفكير في معرفة حقيقته وذاته ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿٢﴾﴾^(٤). فالهجز عن إدراك حقيقة الذات عقيدة من عقائد الإيمان بالله ودليل على سمو الألوهية الحققة عن الدخول في دائرة التفكير العقلي المحدود بطبيعته. كما يقرر القرآن في جانب الإله، الوحدانية الشاملة لوحدانية الربوبية فلا خالق، ولا مدبر، ولا متصرف سواه، ووحدانية الألوهية، فلا معبود بحق، ولا مسئول ولا مستعان سواه، وكثيراً ما يستدل بوحدانية الربوبية التي تشهد بها الفطرة ويعترف بها الإنسان في كثير من حالاته على وحدانية الألوهية.

(١) الأخلاص: ١ - ٤.

(٢) الأعراف: ١٨٠.

(٣) الإسراء: ١١٠.

(٤) الأنعام: ١٠٢ - ١٠٣.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾
 (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ
 مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴿١﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (٢٠) أَمْوَاتٌ
 غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴿٢٢﴾ ﴿٢﴾.

كما يحرك القرآن عقول الناس ووجدانهم إلى النظر فيما يوجب وحدة
 المعبود وحدة تامة كاملة ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَا بَتَغُوا إِلَى ذِي
 الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (٢٢) سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٢٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ
 السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ
 إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٢٤﴾ ﴿٣﴾ وقال: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ (٢١)
 لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا
 يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ
 هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ
 مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴿٤﴾ ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ
 بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٢١) عَلِيمُ الْغَيْبِ
 وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٢﴾ ﴿٥﴾.

(١) البقرة: ٢١ - ٢٢.

(٢) النحل: ٢٠ - ٢٢.

(٣) الإسراء: ٤٢ - ٤٤.

(٤) الأنبياء: ٢٢ - ٢٤.

(٥) المؤمنون: ٩١ - ٩٢.

كما دعا القرآن الإنسان إلى النظر فيما حوله: إلى طعامه ﴿فَلْيَنْظُرِ
الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦)
فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَاقٍ غُلْبًا (٣٠)
وَفِكَهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَعَلَّكُمُ وَلَآ نَعْلَمُكُمْ (٣٢) ﴿(١)﴾

أن ينظر إلى خلقه ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦)
يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿(٨)﴾ (٢)﴾

أن ينظر إلى ملكوت الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٣) ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا تُعْغِي الْآيَاتِ وَالنَّذِيرِ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٤)﴾ (٤)﴾

أن ينظر: إلى أحداث التاريخ وما فعل الله بالأمم السابقة ﴿أَوَلَمْ
يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٥)﴾ (٥)﴾

إلى ما خلف الله في هذا الكون وإلى آياته المنبئة في كل مكان
﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيَاتِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (٧) ، ﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (٨) ﴿وَالِى
الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (٩) ﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (١٠) ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ
لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَتَى يُؤْفَكُونَ﴾ (١١)﴾ (٧)﴾

إلى النواميس الاجتماعية في هذا الكون «أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمُ

(٢) الطارق: ٥ - ٨.

(٤) يونس: ١٠١.

(٦) الروم: ١٧ - ٢٠.

(١) عبس: ٢٤ - ٣٢.

(٣) الأعراف: ١٨٥.

(٥) الروم: ٩.

(٧) المائدة: ٧٥.

عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴿١﴾.

إلى المطر وهو ينزل من السماء فيحياله به الأرض بعد موتها، وإلى الثمار وهي تتدلى من غصون الأشجار ﴿فَانْظُرْ إِلَى ثَأْنِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢﴾.

﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ ﴿٣﴾.

إلى الحياة الأولى، كيف بدأت، وكيف نمت وارتقت ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿٤﴾.

وجملة القول:

أن القرآن الكريم جاء بهداية عامة، صححت معارف الفلاسفة، كما صححت معارف الأميين، ومن لا ينتمي إلى العلم، كما صححت عقائد أهل الكتاب من يهود ونصارى، كما صححت أغلاط عبدة الأصنام. ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ ﴿٥﴾.

كما كان من مقاصده الأولى بيان ما اختلف فيه أهل الكتاب: قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِلتَّبَيُّنِ لِمُتَّبِعِيهِ أَلَّذِينَ ائْتَمَرُوا بِهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦﴾ ﴿٦﴾. ﴿وَوَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٧﴾ ﴿٧﴾. ويقول: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنُ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٨﴾. ﴿وَإِنَّهُ لَهْدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩﴾ ﴿٨﴾.

(٣) الأنعام: ٩٩

(٢) الروم: ٥٠.

(١) الإسراء: ٢١.

(٦) النحل: ٦٤.

(٥) الإسراء: ٩.

(٤) العنكبوت: ٢٠.

(٨) النحل: ٧٦ - ٧٧.

(٧) النحل: ٨٩.

كما رفع القرآن «ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من حجر على عقول المتدينين من فهم الكتب السماوية استثنائاً من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم وضنا به على كل من لم يلبس لباسهم، ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتب المقدسة، ففرضوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرأوا قطعاً من تلك الكتب، لكن على شريطة أن لا يفهموها، ولا أن يطيلوا أنظارهم إلى ما ترمي إليه، ثم غالوا في ذلك فحرموا أنفسهم أيضاً مزية الفهم الا قليلاً، ورموا عقولهم بالقصور عن إدراك ما في الشرائع والنبوات، ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الألفاظ تعبدًا بالأصوات والحروف. فذهبوا بحكمة الارسال، فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا».

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾
 فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
 فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾^(١).

وقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَا يُحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ
 مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾^(٢).
 وقال: ﴿وَأَنزَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَأَتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ
 فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ
 فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ
 كَذَبُوا بِعَايَتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾^(٣).

(١) البقرة: ٧٨ - ٧٩.

(٢) الجمعة: ٥.

(٣) الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦.

وأعلن القرآن في صراحة ووضوح أن دين الله في جميع الأزمان، وعلى ألسن جميع الأنبياء واحد ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمَ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (١).

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢).

فالقرآن الكريم صحح العقائد، وحرر الفكر والعقل، وأيقظ الضمير والوجدان الأنساني، وفتح أمام العقول بابا للتأمل والتفكير، استمع إليه وهو يطرح هذه الأسئلة:

﴿ أَمِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا. أَلَيْسَ اللَّهُ بِمَعْلُومٍ لَكُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾.

﴿ أَمِنْ جَعَلِ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) أَمِنْ يُجِيبُ الْمَضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ أَسْوَأَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤) أَمِنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٥) أَمِنْ يَبْدُوا أَنْخَلَقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ قُلُّ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٦) قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ (٧).

(٣) النحل: ٦٠ - ٦٥.

(٢) آل عمران: ٦٧.

(١) آل عمران: ١٩.

في هذه الآيات الخمس خمسة أدلة على انفراده تعالى بالخلق والإيجاد والتصرف والتدبير، فلا إله غيره ولا يستحق العبادة سواه. والاستفهام هنا للإنظار والمراد به التوبيخ والتبكيت، لأنهم يعدلون عمداً عن الحق الواضح وهو التوحيد إلى الباطل البين وهو الشرك. وهو من العدول بمعنى الانحراف، أو يساوون بالله تعالى غيره من آلهتهم، وهو من العدل بمعنى المساواة.

أما الآية السادسة والأخيرة في هذا النص، فهي تقصر علم الغيب على الله تعالى كما أمر الساعة لا يعلمه أحد من البشر ولا يسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقَّتِهَا إِلَّا هُوَ ثُقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

من أصول العقائد التي يجب الإيمان بها:

الإيمان بالرسول:

الإيمان بالرسول ركن من أركان العقيدة، لا تتم عقيدة المسلم إلا به، ولقد كان من رحمة الله تعالى بالإنسانية أن أرسل إليها رسلاً مبشرين ومنذرين - مبشرين بثوابه، ومنذرين بعقابه - قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا

يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (٢).

(١) الأعراف: ١٨٧ - ١٨٨.

(٢) النساء: ١٦٥.

وتعاقبت هذه الرسائل على الإنسانية أمة بعد أمة وجيلاً بعد جيل

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (١) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ﴾ (٢) وكلها تهدف إلى هدف واحد وهو إقامة العدل بين الناس والأخذ بأيديهم إلى طريق الكمال ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (٣).

والقرآن الكريم يوجب الإيمان بجميع الرسل وبما أنزل عليهم، لا فرق في ذلك بين أولهم وآخرهم ﴿ءَاَمَنَ أَرْسُولُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ءَ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَاتِهِ ءَ وَكُتُبِهِ ءَ وَرُسُلِهِ ءَ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (٤).

﴿قُلْ ءَاَمَنَّا بِاللَّهِ ءَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ءَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ءَ وَإِسْمَاعِيلَ ءَ وَإِسْحَاقَ ءَ وَيَعْقُوبَ ءَ وَالْأَسْبَاطَ ءَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ءَ وَعِيسَىٰ ءَ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٥). ذلك أن الأصل الذي جاءوا به واحد والعقيدة واحدة لا تختلف من أمة إلى أمة أو من رسالة إلى أخرى ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا ءَ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ءَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ ءَ إِبْرَاهِيمَ ءَ وَمُوسَىٰ ءَ وَعِيسَىٰ ءَ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (٦).

فمن كفر بواحد منهم، فقد كفر بجميعهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ءَ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ءَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ

(١) فاطر: ٢٤.

(٢) يونس: ٤٧.

(٣) الحديد: ٢٥.

(٤) البقرة: ٢٨٥.

(٥) آل عمران: ٨٤.

(٦) الشورى: ١٣.

وهؤلاء الرسل من البشر لهم من الصفات مثل ما لسائر البشر، فهم يأكلون ويشربون ويتناحون ويتناسلون، ويموتون كما يموت البشر ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتُمْ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِغَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (٣) ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلْبَشَرِ مِنْ قَبْلِكَ أَنْتَلِدَ أَفْئَانٍ مَتَّ فُهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ (٤) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٥) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَعَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦) ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٧).

وهذا من رحمة الله تعالى بالإنسان، حتى يسهل التلقي عنهم والاقتراء بهم. ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَكَّا رَسُولًا (٩٥) ﴿٩٦﴾. إِلَّا أَنْ اللَّهَ تَعَالَىٰ خَصَّهُمْ بِرَحْمَتِهِ وَاصْطَفَاهُمْ مِنْ

(٢) الفرقان: ٢٠.

(٣) الرعد: ٣٨.

(٤) الأنبياء: ٣٤ - ٤٤.

(٥) النحل: ٤٣ - ٤٤.

(٦) الإسراء: ٩٤ - ٩٥.

خلقه لكي يبلغوه عنه، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مَنِ
الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ (١) ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا
بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ
بَعْضًا سُلْطَانًا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٢).

فالرسالة أو النبوة منحة من الله لا تنال بالاجتهاد والعبادة، وإنما هي
اجتباء واختيار، وهم أهل لهذا الاختيار، فيجب على الناس جميعاً أن
يصدقوهم، وأن يقتدوا بهم في سيرهم وأن يأتمروا بأمرهم وأن يكفوا عما نهوا عنه
لتتحقق لهم السعادة في دنياهم وأخراهم، فلا سبيل إلى السعادة والفلاح إلا
على أيدي الرسل ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من
جهتهم، ولا ينال العبد رضا الله تعالى إلا بهديهم.

وهم جميعاً يتعاونون لتحقيق هذا الهدف، وقد أخذ الله عليهم العهد
والميثاق بذلك ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ
جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ
إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٣).

يمهد السابق منهم للاحق، ويصدق اللاحق منهم السابق، وقد ذكر
القرآن الكريم عدداً من الرسل على سبيل التفصيل، وأخبر الرسول صلى الله عليه
وسلم أن من الرسل من لم يذكرهم الله تعالى في كتابة فيجب الإيمان بهم
إجمالاً لأن الله تعالى أخبرنا بذلك وهو أصدق قليلاً: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ

(١) الحج: ٧٥.

(٢) الزخرف: ٣٢.

(٣) آل عمران: ٨١.

أَنْ يَأْتِيَ بِعَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿١﴾.

وقال: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ ﴿٢﴾.

وبين الله تعالى الحكمة من هذا القصص، فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِيَتْ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣﴾ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٤﴾.

وهؤلاء الرسل لا سلطان لهم على البشر، وإنما هم مبلغون عن الله فقط، من غير جبر أو إكراه وهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿٥﴾ وقال ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦﴾ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿٧﴾ لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٨﴾ ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿٩﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ ﴿١٠﴾.

والذي لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، لا يملك لغيره من باب أولى، وكما يجب الإيمان بجميعهم - يجب الإيمان بأن محمداً صلى الله عليه وسلم

(٣) هود: ١٢٠.

(٢) النساء: ١٦٤.

(١) غافر: ٧٨.

(٦) الأعراف: ١٨٨.

(٥) يونس: ٤٩.

(٤) يوسف: ١١١.

(٩) الإسراء: ٥٤.

(٨) الأنعام: ٦٦.

(٧) الفاشية: ٢١ - ٢٢.

هو خاتم الأنبياء والمرسلين فلا نبي بعده. ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾^(١) وأن رسالته خاتمة الرسالات ﴿إِنَّ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢).

كما يجب الإيمان بأن رسالته إلى الناس كافة على اختلاف أجناسهم ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمُ جَمِيعًا﴾^(٣) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٤) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٥). بل أكثر من هذا، فهو مبعوث إلى الجن كما هو مبعوث إلى الأنس، ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَىٰ أَنَّهُ سَمِعَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الْارْتِدَادِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾^(٦).

والقرآن الكريم هو الذي دلنا على هؤلاء الرسل، وبين لنا ما يجب علينا نحوهم من التعظيم والاحترام والتصديق والانقياد لما جاءوا به عن طريق الوحي، لأن معارف الناس المكتسبة بحواسهم وعقولهم لا يمكن أن ترقى إلى ما جاء به الرسل عليهم السلام، ومن هنا كانت الحاجة إلى بعثهم ضرورة لا بد منها، ولذلك نفى الله تعالى العذاب عن الخلق حتى يبعث عليهم من يعرفهم به، وما يجب عليهم نحوه من عبادته وشكره وذكره. وما يجب عليهم الإيمان به من البعث بعد الموت والحساب والجزاء على الإيمان والأعمال. وهو من أكبر

(١) الأحزاب: ٤٠.

(٢) المائدة: ٣.

(٣) الأعراف: ١٥٨.

(٤) الأنبياء: ١٠٧.

(٥) سبأ: ٢٨.

(٦) الجن: ١ - ٢.

البواعث على الإيمان بالله تعالى.

وكما يجب الإيمان بالرسول، يجب الإيمان بالمكتب السماوية التي أنزلها الله على هؤلاء الرسل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(١) والقرآن الكريم هو الكتاب المصدق لما سبق والمهيم عليه، وهو الكتاب الوحيد من بين سائر كتب الله تعالى الذي ضمن الله حفظه، ولم يكل ذلك إلى أحد من خلقه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٢). فهو محفوظ بحفظ الله له، وسوف يظل هذا الحفظ إلى أن تقوم الساعة.

من عوالم الغيب الملائكة والجن:

إن مصدر العقيدة في الأمور الغيبية هو القرآن وحده، ولذا يجب علينا أن نقف في الإيمان بالملائكة عند الحد الذي أخبر به القرآن، وهو الخبر الصادق الذي لا يتطرق إليه الشك، بل هو الحق الثابت، لأنه أخبار عن الله سبحانه.

والقرآن يقرر في حقهم. أنهم عباد مكرمون ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٣). لهم وظائف متعددة، وهم خاضعون لسلطان الله تعالى، الذي لم يشذ عن الخضوع له شيء في الأرض ولا في السماء، وهم رسل من رسل الله اصطفاهم الله تعالى كما اصطفى رسلا من البشر ليلغوا عنه. قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(٤) وهم أولوا اجنحة مثى وثلا ورباع ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ

(١) النساء: ١٣٦.

(٢) الحجر: ٩.

(٣) التحريم: ٦.

(٤) الحج: ٧٥.

وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مِّثْنَى وَثَلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنْ أَلَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾.

منهم من ينزل بالوحي إلى أنبياء الله ورسله، ومنهم من يثبت المؤمنين ومنهم المبشرون بحسن العاقبة، ومنهم من يحفظ على الإنسان أعماله في الدنيا، ثم تعرض عليه في الآخرة، ومنهم من يقوم بقبض الأرواح عند الموت، ومنهم الساجدون والمسبحون والحمدون إلى غير ذلك من الوظائف التي لا يحيط بها إلا الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (٢) ونقرأ هذه الآيات التي تحدثت عن الملائكة: قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٣) ﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤) ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (٥) ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ (٧) ﴿نَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٨) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ (٩) ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ (١٠) ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (١١) ﴿الَّذِينَ نَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (١٣).

من هنا كانت الحاجة إلى القرآن، لبيان هذا العالم الغيبي الذي لا يعرفه الإنسان بإدراكه البشري، والإيمان بهم عقيدة، لأن الله قد أخبر عنهم في كتابه وعلي السنة رسله عليهم السلام: ﴿إِذْ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (١٤) ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ (١٥).

(١) فاطر: ١.	(٢) المدثر: ٣٢.	(٣) الأنفال: ١٢.
(٤) الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤.	(٥) فصلت: ٣٠.	(٦) الانقطار: ١٠ - ١٢.
(٧) النحل: ٣٢.	(٨) النساء: ٩٧.	(٩) البقرة: ٢٨٥.

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ﴿٢﴾ وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿٣﴾.

من عوالم الغيب «عالم الجن»:

والجن خلق من خلق الله تعالى أخبرنا القرآن الكريم عن المادة التي خلق منها. قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ ﴿١٦﴾.

وهم مكلفون كما كلف الإنس، منهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنهم الصالح ومنهم الطالح ﴿وَأَنَا مِّنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا وَرَشِدًا﴾ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾.

فهم محاسبون على أعمالهم كما يحاسب الإنسان، سواء بسواء ﴿يَمْعَشِرِ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿٢١﴾.

(١) آل عمران: ١٨.

(٢) الأحزاب: ٥٦.

(٣) الأحزاب: ٥٦.

(٤) الرحمن: ١٤ - ١٥.

(٥) الحجر: ٢٧.

(٦) الجن: ١٤ - ١٥.

(٧) الأنعام: ١٣٠.

وهم يتلقون الوحي عن الأنبياء والرسل، كما يتلقاه الإنسان ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصَتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۚ﴾ (١) قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابِ الْعَذَابِ ﴿٣﴾ ﴿١﴾.

لا يملكون من أمر الغيب شيئاً ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرَأُ رِيدَ بِنِ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (٢) وهم خاضعون لأمر الله محكمون بإرادته وقدرته ﴿يَلْعَنُ الشَّيْطَانُ الْإِنسَ إِنِ اسْتَطَاعَ أَن تَتَفَادُوا مِنْ آفَاطِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (٣) فَيَأْتِي الْآءَ رَبُّكَ نَكَذِّبَانِ ﴿٤﴾ (٣).

لهم القدرة على التشكل بالأشكال المختلفة، وذلك بقدرة الله تعالى وهم يرون البشر ولكن البشر لا يرونهم ﴿إِنَّهُ يَرَبُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مَن حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٤) ﴿٤﴾.

وفي القرآن الكريم سورة كاملة سميت بسورة «الجن» وقد أمرنا الله تعالى بالتعوذ من شر الجن والإنس على السواء في آخر سورة من سور القرآن وهي سورة الناس.

من هذا نلاحظ أن القرآن الكريم حيث تحدث عن الجن تحدث عنهم باعتبار أنهم مسئولون يحاسبون على أعمالهم إن خيراً وإن شراً، وإن كانت

(١) الأحقاف: ٢٩ - ٣١.

(٢) الجن: ١٠.

(٣) الرحمن: ٣٣ - ٣٤.

(٤) الأعراف: ٢٧.

طبيعتهم تختلف عن طبيعة الإنسان، من حيث المادة التي خلق منها كل منهما، ومن حيث الظهور والخفاء ومن حيث القدرة اليت خص بها الجن دون الإنسان، فالتصديق بوجودهم من مقتضيات التصديق بالقرآن، وصدقه في كل ما حدث عنهم، فالإيمان بوجودهم واجب.

الإيمان باليوم الآخر:

الإيمان باليوم الآخر وما يكون فيه من البعث والحساب والجزاء على الأعمال ركن من أركان الدين الذي بعث الله به الأنبياء والمرسلين. وبه يكمل الإيمان بالله تعالى، ويكون باعثاً على العمل الصالح والاستقامة وتحقيق العدل، وترك الفواحش والمنكرات والبغي والظلم والإفساد في الأرض.

والقرآن الكريم قد أكثر الحديث عن اليوم الآخر وما فيه من الحساب الدقيق والنعيم المقيم، والعذاب الأليم. وأن الحياة الدنيا ما هي إلا مقدمة لحياة أخرى باقية لا يلحقها فناء ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(١) وأن الخلق جميعاً سائرون إليها لا محالة، يستوي في ذلك الكبير والصغير، والعظيم والحقير ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(٢) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٤١﴾^(٣).

كما أخبر القرآن أن هذا اليوم قريب، وإن غفل عنه الناس: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾^(٤) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَسَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٣﴾. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٥) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا. وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي

(١) العنكبوت: ٦٤.

(٢) الزمر: ٣٠ - ٣١.

(٣) الأنبياء: ١ - ٢.

الْقُبُورُ ﴿١﴾.

وأن نهاية هذا العالم والإقبال على العالم الآخر، إنما يتم بكلمة تحقيقاً لوعد الله وتصديقاً لرسله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢)، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ (٣) قَالُوا يَنبَغِي لَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٤﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَحِيفَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِجَمِيعٍ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥﴾ وهذا الحضور بين يدي الله تعالى هو خاتمة المطاف بالنسبة للإنسان، وإليه تنتهي الغاية من خلق هذا الإنسان ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (٦) وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَىٰ ﴿٨﴾ وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٩﴾ (٤).

وإذا علمنا أن الله تعالى قد خلق هذا الإنسان وكرمه على سائر المخلوقات وسخر له ما في السموات وما في الأرض، وأن هذا الخلق لم يكن عبثاً، لأن الله تعالى منزّه عن العبث ﴿أَلْحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١٠) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١﴾ (٥).

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (١٢) ﴿١٣﴾ إذا علمنا هذا أقنا أن الله تعالى لمن يهمل هذا الإنسان ويتركه دون حساب يترتب عليه ثواب وعقاب. ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَفُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾ (١٤) ﴿١٥﴾ من هنا وجب الإيمان بالبعث.

(١) الحج: ٦ - ٧. (٢) يس: ٨٢ - ٨٣. (٣) يس: ٥١ - ٥٣.

(٤) النجم: ٣٩ - ٤٢. (٥) المؤمنون: ١١٥ - ١١٦. (٦) ص: ٢٧.

(٧) النجم: ٣١.

أما الأدلة على وقوعه وإمكانه فأكثر من أن تحصى، ونكتفي منها ببعض ما جاء في القرآن على سبيل المثال لا الحصر، أما ما وراءه من الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار وما أعده الله للمتقين والكافرين، فليس للعقل فيه مجال، وإنما هو أسير النقل الصحيح اليقيني عن الكتاب والسنة، ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى القرآن الكريم لبيان هذه العقيدة، لأن الإيمان باليوم الآخر وما فيه من أقوى الدوافع للإنسان كي يصل إلى الكمال والرقى في حياته الدنيا، ويحظى بالنعيم والسعادة في الدار الآخرة.

أما أدلة الإمكان فمنها:

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (٧) ﴿^(١)

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٧٨) ﴿^(٢) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧٩) ﴿^(٣)

﴿ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (٧٩) ﴿ وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾ (٨٠) ﴿^(٣) ﴿ وَيَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (٨١) ﴿^(٤) ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ

(١) التغابن: ٧.

(٢) يس: ٧٨ - ٧٩.

(٣) الكهف: ٤٧ - ٤٨.

(٤) الأنبياء: ١٠٤.

مُخَلَقَةٍ لِّنَبِيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّفِي الْأَرْحَامَ مَا نَشَاءُ إِلَيَّ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ
لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ
بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنَبِّتُ
مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٥١﴾ ﴿١﴾.

وهكذا في كثير من سور القرآن الكريم حتى لا تكاد تخلو سورة من
الحديث عن اليوم الآخر، واقرأ إن شئت سورة الواقعة، وسورة القيامة، وسورة
الزلزلة، وسورة القارعة.

الإيمان بالقدر:

وكما يجب علينا الإيمان باليوم الآخر. يجب علينا أن نؤمن بأن الله
خلق الإنسان ومنحه العقل والإرادة، كما منحه القدرة والاختيار، فهو يفعل
الخير مختاراً، فيثاب عليه، ويفعل الشر مختاراً، فيعاقب عليه. ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمَرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفَرْ﴾ ﴿٢﴾.

وبتلك الحرية وهذا الاختيار كلفه الله وأرسل عليه المرسل لهدايته
وإرشاده ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ ﴿٣﴾ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا
كَفُورًا﴾ ﴿٤﴾. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ﴿٥﴾ ﴿فَالْهَمَّهَا جُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ﴿٦﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ
زَكَّاهَا﴾ ﴿٧﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ ﴿٨﴾ ﴿٥﴾.

(١) الحج: ٥ - ٦.

(٢) الكهف: ٢٩.

(٣) البلد: ١٠.

(٤) الإنسان: ٣.

(٥) الشمس: ٧ - ١٠.

وعلى هذا الأساس، أمر الله الإنسان ونهاه، وبعث له الرسل، وأنزل عليه الكتب، ووضع نصب عينيه الثواب والعقاب، ولولا أن الإنسان ذو إرادة وقدرة ما كان لتحميله أمانة التكليف معنى ولا كان ثوابه وعقابه مما يوافق العدل الإلهي والحكمة الإلهية، ولا كان هناك معنى لاستخلافه في الأرض واستعمارها فيها، أي طلب عمارتها.

إن الإنسان مخلوق الله، محكوم بمشيئته، خاضع لإرادته، ولكنه مخلوق متميز بمواهبه وملكاته، وقواه الروحية والعقلية والمادية التي أهله الله بها ليحمل مسئولية الخلافة وأمانة التكليف: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾^(١).

فالإنسان محكوم ومختار في آن واحد، بمعنى أنه لا يسأل عما لا إرادة له فيه، ولكنه يسأل ما يملك فيه حرية الاختيار، فهو مختار في فعله، ليس مقهوراً ولا مجبوراً على خير أو شر، محكوم بقدرة الله ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾^(٢).

ولا يجوز أن يحتج الإنسان بالمشيئة العليا ليفلت من العقاب، أو يتخذ ذلك ذريعة إلى ارتكاب المعصية أو الانحراف عن أوامر الله، ولو صح ذلك لبطلت التكليف، وكان بعث الرسل وإنزال الكتب ودعوة الناس إلى دين الله والوعد بالثواب لأهل الخير، وبالعقاب لأهل الشر، باطلاً وعبثاً، وهذا مستحيل على الله تعالى، لأنه منزه عن ذلك.

وحين اعتذر المشركون عن شركهم بأنهم مجبورون بمشيئة الله لشركهم. أنكر الله عليهم ذلك، وأخبرهم أن حجته قائمة عليهم، وذلك بما منحهم من العقل وأرسل إليهم من رسل ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا

(١) الأحزاب: ٧٢.

(٢) الإنسان: ٣٠.

أَشْرَكْنَا وَلَا أَبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴿١﴾.

إن الله تركهم وما يختارون، من ضلال أو هداية، أن الله يعلم ما سيكون الإنسان عليه من هدى أو ضلال، وخير أو شر وعلمه شامل، وليس في ذلك شيء من القهر والإلزام، وإنما هو مجرد إنكشاف ما وقع وسيقع وفق سنته تعالى في الكون والإنسان. وهذا هو معنى القدر^(٢). ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾^(٣).

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾^(٤).

وليس في الإسلام أن الخطيئة موروثة في الإنسان قبل ولادته، ولا أنه يحتاج في التوبة عنها إلى كفارة من غيره، كما في الأديان الأخرى، بل الإنسان في الإسلام محاسب على عمله فقط ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ﴾^(٥).

(١) الأنعام: ١٤٨ - ١٤٩.

(٢) انظر في ذلك الوحي المحمدي، الإسلام عقيدة وشرعة، حقائق الإسلام للعقاد، الخصائص العامة للإسلام، المحاور الخمسة للقرآن للشيخ محمد الغزالي «رسالة التوحيد».

(٣) الحديد: ٢٢.

(٤) الملك: ٢.

(٥) لقمان: ٣٣.

﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَلِأَنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَلِأَنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥) ﴿١﴾
 ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٢٠) ﴿٢﴾

قال النووي: (اعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر، ومعناه أن الله تبارك وتعالى قدر الأشياء في القدم، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى) (٣).

الفصل الثالث الحاجة إلى القرآن في مجال التشريع

القرآن الكريم يقرر: أنه ليس لأحد من البشر حق في التشريع والتقنين أو التحليل والتحریم، بل الحق في ذلك لله ورسوله. أما ما يشرعه البشر لأنفسهم أو لغيرهم من بني جنسهم فمرد ذلك إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإن وافق الكتاب والسنة قبلناه، وإن خالف الكتاب والسنة رددناه، قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكُّهُ ۚ إِلَى اللَّهِ دَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (٤) ﴿وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرُهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَم أَنَّمَا يُرِيدُ

(١) الإسراء: ١٥.

(٢) الشورى: ٣٠.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي: ج ١ ص ١٥٤ - دار إحياء التراث.

(٤) الشورى: ١٠.

اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بَعْضُ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ أَفَكُمُ
الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴿١﴾ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا
يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرِ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا
تَسْلِيمًا﴾ ﴿٢﴾ ﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣﴾ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ
لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۚ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٤﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ
أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى
اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴿٤﴾.

إن القرآن الكريم قد اشتمل على كل ما يحتاجه الناس في حياتهم من
أحكام أو قوانين تحكم علاقاتهم في كل مسورها، ونجيب على كل
تساؤل انهم على كثرتها وتنوعها قال تعالى: ﴿وَزَلَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ
شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٥﴾ وقال: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ
شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿٦﴾.

يقول الشافعي رضي الله عنه في كيفية بيان القرآن للأحكام، إنها
على أربعة أقسام.

١ - ما أبانه الله لخلقه نصا، مثل جمل الفرائض، كالنص على الصلاة والزكاة

(١) المائدة: ٤٩ - ٥٠.

(٢) النساء: ٦٥.

(٣) النحل: ٦٤.

(٤) النحل: ١١٥ - ١١٦.

(٥) النحل: ٨٩.

(٦) الأنعام: ٣٨.

والحج، وحرمة الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وحرمة الزنا والخمر، وأكل الميتة ولحم الخنزير.

٢ - ما أحكم الله فرضه في كتابه، وبين تفصيله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم مثل عدد الصلاة والزكاة وأوقاتها.

٣ - ما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم، مما ليس لله فيه نص حكم، وقد فرض الله في كتابه طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم والانتهاى إلى حكمه، فمن قبل عن رسول الله بفرض الله قبل.

٤ - ما فرض الله على خلقه الاجتهاد في طلبه، وابتلى طاعتهم في الاجتهاد كما ابتلى طاعتهم في غيره مما فرض عليهم^(١).

وبالنظر إلى هذه الأقسام التي ذكرها الإمام الشافعي رضي الله عنه، نجد أنها جميعها ترجع إلى القرآن الكريم، إذ كل ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما بينه للناس أو سنة هو لهم مما لا نص فيه، فهو يندرج تحت قوله ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٢).

وقوله ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّبُوا تَسْلِيمًا﴾^(٣).

وقوله ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٤).

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾^(٥).

(١) الرسالة للإمام الشافعي، بتحقيق أحمد محمد شاكر - ط - الحلبي ١٩٤٠ مصر، ص ٢١.

(٢) الحشر: ٧.

(٣) النساء: ٦٥.

(٤) النساء: ١١٥.

(٥) النساء: ١٠٥.

وقوله ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (١).

أما الاجتهاد، فقد جعل القرآن لأهل الذكر والاستنباط منزلة سامية، وأمر الناس بالرجوع إليهم فيما يحتاجون إليه فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِيَ الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (٣) وقال: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤) وقال ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ (٥).

وقد مهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده طريق الاستنباط لمن جاء بعدهم من أئمة المسلمين وعلمائهم، ولذلك اتضح مقدار سعة هذا التشريع وتناوله لكل ما يجد في الحياة، وأنه بحق صالح لتنظيم جميع الشؤون: اجتماعية أو فردية إلى يوم الدين.

وقد انعقد اجتماع المسلمين على أن القرآن الكريم هو أساس الدين والشريعة حتى صار ذلك عندهم مما علم من الدين بالضرورة، لا فرق في ذلك عندهم بين عصر وعصر، وإقليم وإقليم، فهو حجة الله العامة على الناس أجمعين في كل زمان ومكان في عقائده وأحكامه وأخلاقه. ومن زعم أنه حجة خاصة بقوم دون قوم، أو بعصر دون عصر، فهو خارج عن شريعة الإسلام (٦).

لقد نزل القرآن وللعرب عرف ومعاملات. وأحكام وعادات، فأقر كثيرا

(١) النحل: ٤٤.

(٢) النساء: ٥٩.

(٣) النساء: ٨٣.

(٤) الأنبياء: ٧. والنحل: ٤٣.

(٥) الحشر: ٢.

(٦) الإسلام عقيدة وشريعة للمرحوم الشيخ شلتوت: ص ٤٨٨، ٤٩٨.

مما درجوا عليه في هذه الشئون، وهذب فيها وعدل، وألغى وبدل، وليس ذلك مما يضير القرآن في تشريعه واستقلاله، فما كان الإسلام إلا دينا يراد به تدبير مصالح العباد وتحقيق العدالة وحفظ الحقوق، ولم يأت ليهدر كل ما كان عليه الناس ليؤسس على أنقاضه بناء جديدا لا صلة له بفطرة البشر وما تقتضيه سنن الاجماع، وإنما كان ينظر إلى الأشياء من جهة ما فيها من مصالح ومضار، فما كان منها صالحاً أبقاءه وأقره - كالقسامة والديات - وجعله من شريعته، وما كان منها ضاراً مفسداً للمال أو للاجتماع أو للأسر، نهى عنه وحرمه وما احتاج منها إلى التنقيح والتهذيب أدخل عليه من التهذيب ما جعله صالحاً كفيلاً بخير الناس^(١).

واقترضت مشيئة الله تعالى أن يفصل الحكم في الأمور التي لا تختلف من بيئة لبيئة ولا من زمان لزمان، كالميراث والزواج والطلاق وكتابة الديون، وأن يجعل الحكم فيما يختلف حسب ظروف الناس وبيئاتهم، كالحكم والشورى، فلم يفصل القرآن كيف يكون هذا الحكم، وإنما ترك ذلك لظروف الناس. واشترط في هذا الحكم أن يقوم على العدل، ولم يفصل في الشورى كذلك، بل ترك ذلك لظروف المسلمين في كل بلد^(٢).

وهذه الخصائص التي تميز بها الإسلام عن غيره لا يمكن أن توجد في أي تشريع آخر، من حيث الشمول والوفاء بحاجات البشر في كل زمان ومكان. مهما اختلفت البيئات وتغيرت الظروف، لأن مصدره الأول كتاب الله ﷻ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﷻ^(٣). ومنزله إله خالق يعلم ما كان وما سيكون خلق الإنسان ويعلم ما يصلح هذا الإنسان ﷻ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﷻ^(٤).

(١) الإسلام عقيدة وشريعة - الشيخ شلتوت: ص ٤٩١.

(٢) دراسات في الثقافة الإسلامية. د/ محمد عبدالسلام وآخرون - مكتبة الفلاح الكويت: ط ٤.

(٣) فصلت: ٤٢.

(٤) الملك: ١٤.

إنه دين الرحمة والعدالة والمساواة ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (١).

الرحمة بالضعيف والفقير والمسكين وابن السبيل والعاجزين والمحتاجين، ففرض لهم حقا معلوما ونصيبا مقدرا في أموال الأغنياء هو الزكاة والكفارات، وهو دين العدل يحمي حقوق الأغنياء ويحافظ عليها إذا أدوا حق الله فيها، فشرع حد السرقة لمن يعتدي على أموال غيره من غير حق له أو شبهة، وصان حق اليتيم وحذر من الاقتراب منه إلا بالمعروف ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (٢). ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنْمَّا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (٣).

ودين المساواة بين الرجل والمرأة في العمل والجزاء والميراث، فبعد أن كانتلا ترث فاحتفظ القرآن لها بنصيبها من الميراث على قدر حصتها في الجيد والردىء من المال: «لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا» (٤).

وأمر القرآن بلزوم العدل في كل الأمور، وعلى أي حال كان، وحذر من اتباع الهوى والعصبية وبغض الناس، لأن ذلك قد يدفع إلى تلك العدل، فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ (٥).

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَفَاؤُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ

(٣) النساء: ١٠.

(٢) الإسراء: ٣٤.

(١) الحديد: ٢٥.

(٥) النساء: ١٣٥.

(٤) النساء: ٧.

الْحَرَامُ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوُنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوُنُوا عَلَى الْإِنْفِ وَالْعُدُونِ ﴿١﴾.

كما لا يبيح العداوة والبغضاء لمجرد المخالفة في الدين، بل يترك لكل إنسان أن يعتقد ما يشاء ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حِجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٥) ﴿٢﴾.

﴿قُلْ يَتَّيِبَا الْكَافِرُونَ﴾ (١) ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢) .. (السور) (٣).
بل أكثر من هذا، فهو قد رخص للمؤمنين في البر والصلة، قولاً وفعلاً، للكفار الذين لم يقاتلوهم لأجل الدين ولم يلحقوا بهم أذى. فقال: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٤) ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٥).

والأمثلة كثيرة جداً، وليس القصد من هذا البحث أن نحصي كل ما جاء به القرآن الكريم، وإنما المقصود بيان الحاجة إلى القرآن في هذه المجالات التي حددناها في مقدمة البحث، ويكفي أنه جاء بتشريع شامل، نظم علاقة العبد بربه، ثم علاقة المسلم بأخيه المسلم، كما نظم علاقة المسلمين بغيرهم مما

(١) المائدة: ٢.

(٢) الشورى: ١٥.

(٣) الكافرون: ١٠٩.

(٤) الممتحنة: ٨ - ٩.

يطول بذكره المقام، كما نظم علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول في السلم وفي الحرب.

كما يكفيه شرفاً وفضلاً، أنه التشريع الوحيد من بين سائر التشريعات الوضعية منها أو السماوية المحرفة، الذي ثبت على مر القرون والأزمان واستطاع أن يواجه كل المشكلات والتحديات وأن يجيب على كل التساؤلات على الرغم من فترات الضعف والجمود التي مرت بتاريخ المسلمين، فعجزوا فيها عن تقديم الحلول لبعض المعاملات التي استحدثت، ولم يوجد لها حكم في الفقه الإسلامي، مما جعل البعض يدافع الحقد للإسلام أو الجهل، بتشريعه، يثير الشبهات حول بعض التشريعات مثل تعدد الزوجات وتعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم وإباحة الطلاق وتحريم الزنا والفواحش ما ظهر منها وما بطن، والخمر والسفور، لأن ذلك يتعارض مع الحرية الشخصية للفرد في نظرهم.

ولكنهم بعد طول التجارب وبمرور الزمن لم يجدوا ملجأً يلجأون إليه حين دمرتهم المعاصي وأفسدت مجتمعاتهم المفاصد والموبقات، كما لم يجدوا علاجاً لهذه الأمراض الخلقية والاجتماعية والنفسية إلا في ظل التشريع الإسلامي، فما كان محرماً عليهم أصبح مباحاً بحكم القانون، وما كان مباحاً أصبح محظوراً بحكم القانون كذلك وإن لم يعترفوا أن هذا من الإسلام.

ونحن ننظر اليوم، فنجد أن أكبر المذاهب شيوعاً وانتشاراً هو الشيوعية، قد انهارت وانقلبت على نفسها، لأن الناس لم تعد تصدق تلك الدعايات الكاذبة والشعارات الفارغة، وها هي الصين أكبر الدول الشيوعية تقوم هذه الأيام بحملة واسعة ضد الفساد والاباحية، وسميت تلك الحملة بحملة الشرور الستة، وهي القضاء على الدعارة والاباحية والمخدرات وخطف النساء، والخرافات، والفساد بكل أشكاله وجميع صورته.

وها هو سرطان هذا العصر المدمر، الذي حير الأطباء وأزعج العالم في الشرق والغرب «الايذز» وهو مرض فقدان المناعة المكتسبة، ومن أسبابه: الاتصال

الجنسي الآثم والمخدرات، فلم تفلح التشريعات الوضعية لعلاج هذه الأمراض وليس أمام العالم - إن أراد الحل لمشكلاته أو العلاج الناجع لأدوائه إلا أن يعود إلى تشريع الإسلام اعترف بذلك أو لم يعترف، لأنه رباني الأصل قرآني المصدر.

فالإسلام في لغة القرآن، ليس اسماً لدين خاص، وإنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف بك كل الأنبياء، وانتسب إليه كل اتباع الأنبياء، هكذا نرى نوحاً الذي يقول لقومه: ﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١) ويعقوب يوصي نبيه ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٢). وأبناء يعقوب يجيبون أباهم: ﴿نَعْبُدُ إِلَهِكَ وَإِلَهُ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٣) وموسى يقول لقومه: ﴿يَقَوْمُ إِن كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾^(٤) والحواريون يقولون لعيسى: ﴿ءَامِنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٥). بل إن فريقاً من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن: ﴿قَالُوا ءَامِنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾^(٦).

وبالجملة، نرى اسم الإسلام شعاراً عاماً يدور في القرآن على السنة والأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمدية، ثم نرى القرآن يجمع هذه القضايا كلها في قضية واحدة يوجهها إلى قوم محمد صلى الله عليه وسلم ويبين لهم فيها أنه لم يشرع لهم ديناً جديداً، وإنما هو دين الأنبياء من قبلهم: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا

(١) يونس: ٧٢.

(٢) البقرة: ١٣٢.

(٣) البقرة: ١٣٣.

(٤) عيونس: ٨٤.

(٥) آل عمران: ٥٢.

(٦) القصص: ٥٣.

وَصَيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴿١﴾.

ثم نراه بعد أن يذكر سيرة الأنبياء وأتباعهم ينظمهم في سلك واحد ويجعل منهم جميعاً أمة واحدة لها إله واحد كما لها شريعة واحدة ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٢).

فعلى كل من ينتسب إلى دين سماوي الرجوع إلى أصل لدينه إن كان ينتمي حقاً إلى دين، بشرط أن يتعد عن الهوى ويتجرد من العصبية، وسوف يجد أن القرآن الكريم هو الكتاب المصدق لما قبله، والمصحح له والمهيمن عليه.

ومن هنا كانت الحاجة إلى القرآن.. لتصحيح العقيدة والشريعة معا. أما من لم يؤمن بكتاب ولم ينتم إلى دين سماوي فعليه أن يقرأ القرآن أو تترجم إليه المعاني التي اشتمل عليها القرآن، وأعني بذلك التفسير لا النص، وهذه مهمة علماء المسلمين وأئمتهم، وهي مهمة البلاغ، لأن لاقراً الكريم جاء بقانون منظم للعلاقات بينالدول، وللعلاقات بين الأفراد، وللعلاقات بين الأسرة، كما ينظم العلاقات بين الآباء والأبناء، وبين حقوق كل طائفة أمام الأخرى، وهذا هو سر إعجازه التشريعي.

وقد أشار إلى ذلك القرطبي إشارة عابرة، فقد قال في كتاب أحكام القرآن في بيان وجوه الإعجاز (ومنها ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام الأنام في الحلال والحرام. وفي سائر الأحكام) (٤). وهو بهذا يشير إلى أن

(١) الشورى: ١٣.

(٢) الأنبياء: ٩٢.

(٣) الدين، د/ محمد عبدالله دراز: ص ١٧٥ - ١٧٦.

(٤) أصول الفقه للإمام محمد أبو زهرة: ص ٩١ نقلا عن القرطبي.

الشريعة وما اشتملت عليه من أحكام منظمة للأسرة والتعامل الإنساني بوجه عام، هو وجه من وجوه الإعجاز.

وهذا الذي ذكره القرطبي حق، وذلك لما اشتمل عليه تشريع القرآن من الشمول والثبات والمرونة وخاصة إذا علمنا أن هذا الكتاب نزل على أمي وإلى قوم لم يكن فيهم قانون، ولا نظام للتعامل، بل كان السائد هو نظام العشائر المبني على التقاليد والعادات الجاهلية.

وقد امتاز هذا التشريع القرآني عن غيره من التشريعات بعدة خصائص نجملها فيما يأتي:

- * كونه وسطا جامعا لحقوق الروح والجسد، ومصالح الدنيا والآخرة.
- * كون غايته الوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة، وذلك بتزكية النفس بالإيمان بالله تعالى ومعرفته، والعمل الصالح، ومكارم الأخلاق.
- * الغرض منه التعارف والتآلف بين البشر، لا زيادة التفريق والاختلاف.
- * كونه يسرا لا حرج فيه ولا إرهاق ولا إعنات.
- * منع الغلو في الدين، وإبطال جعله تعذيرا للنفس بإباحة الطيبات والزينة بدون إسراف ولا كبرياء.
- * قلة تكاليفه وسهولة فهمها حتى يفهمها العالم والجاهل.
- * انقسام التكليف إلى غرائم ورخص.
- * النصوص مراعى فيها درجات تفاوت البشر في العقل والفهم.
- * معاملة الناس بظواهرهم وجعل الباطن موكولا إلى الله تعالى.
- * مدار العبادات كلها على اتباع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم في الظاهر، فليس لأحد فيها رأي شخصي ولا رياسة. ومدارها في الباطن على الاخلاص لله وصحة النية^(١).

(١) الوحي المحمدي: بتصرف يسير: ص ٢٦٧ - ٢٧١.

هذا هو تشريع القرآن.. وهذه خصائصه، فأين هذا من تشريع البشر؟..

الفصل الرابع

الحاجة إلى القرآن في مجال الأخلاق

الأخوة الإنسانية، رباط مقدس فوق اعتبار الجنس والنوع واللون:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾^(١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٢). فالبشر جميعا ينتمون إلى أصل واحد: الأب واحد، والأم واحدة. وبينهم نسب مشترك، وأكرمهم عند الله أتقاهم، والأصل في العلاقات بين الشعوب والقبائل أو بين الأمم والشعوب هو التعارف لا التناكر، والتآلف لا التفرق والاختلاف، كما دعا القرآن إلى التعاون، بشرط أن يكون هذا التعاون لخير الإنسان، أي لجلب النفع ودفع الضرر ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(٣).

ولقد شاء الله للإسلام أن يكون الرسالة العامة الخالدة، فهو هداية الله للناس كافة، من كل الأمم، وكل الطبقات. وكل الأفراد، وكل الأجيال. والناس تختلف مواهبهم وطاقتهم الروحية والفعلية والوجدانية، وتتفاوت مطامحهم وآمالهم. ودرجات اهتمامهم، ولهذا جمعت الفكرة الأخلاقية في الإسلام ما فرقته الطوائف الدينية، والمذاهب الفلسفية – مثالية وواقعية – في نظرتها إلى الأخلاق وتفسيرها لمصدر الإلزام الخلفي، فلم يكن كل ما قالته هذه المذاهب والنظريات

(١) النساء: ١.

(٢) الحجرات: ١٣.

(٣) المائدة: ٢.

باطلا، كما لم يكن كله حقا. إنما كان عيب كل نظرية أنها نظرت من زاوية. وأغفلت أخرى. وهو أمر لازم لتفكير البشر، الذي يستحيل عليه أن ينظر في قضية ما نظرا يستوعب كل الأزمنة والأمكنة وكل الأجناس والأشخاص، وكل الأحوال والجوانب، فهذا يحتاج إلى إحاطة إله عليم حكيم^(١).

وخير للمجتمع الإنساني أن تقاس الأخلاق فيه بمقياس الكمال، ولا تقاس بمنفعة تفسد بفساد المجتمع نفسه، وتنحرف مع انحراف نظرتة إلى منافعه ومضاره، ولا يوجد هذا الكمال إلا في ظلال القرآن، ومن هنا كانت الحاجة ضرورية إلى القرآن في هذا المجال، «فلا بد إذا من الفضائل الإلهية في تعليم الإنسان مكارم الأخلاق، وما اكتسب الإنسان أفضل أخلاقه إلا من الإيمان بمصدر سماوي يعلو به عن طبيعته الأرضية، وهذا هو المقياس الأوفى لمكارم الأخلاق في الإسلام.

ليس مقياسها الأوفى أنها أخلاق قوة، ولا أنها أوساط بين أطراف، ولا أنها ترجمان لمنفعة المجتمع أو منفعة النوع الإنساني بأجمعه في وقت من الأوقات، وإنما مقياسها أنها أخلاق كاملة، وأن الكمال اقتراب من الله^(٢)

ونستطيع بنظرة سريعة أن نقارن بين الأخلاق التي جاء بها القرآن، وبين الأخلاق والفضائل عند عرب الجاهلية لكي يظهر لنا الفرق الشاسع بين هذه وتلك.

فالشجاعة إلى حد التهور، والشهامة التي لا حد لها، والكرم إلى درجة الإسراف، والإخلاص التام للقبيلة، والقسوة في الانتقام والأخذ بالثأر ممن اعتدى عليه. أو على قريب له، أو على قبيلته، هذه هي أصول الفضائل عند العرب الوثنيين في الجاهلية.

(١) الخصائص العامة للإسلام.. د/ يوسف القرضاوي: ١٠٩.

(٢) حقائق الإسلام للعقاد: ص ٢٤٩.

قال تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَنَا ذُنُوبٌ قَدِيرٌ رَبُّكُمْ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَمَلْتُمْ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرُبُوا أَفْوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۚ الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ لَا تُفْسِدُونَ أَنْفُسَكُمْ ۚ كَذَلِكَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۚ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٢﴾ ۝

وهذه جملة من الآيات التي تدل على هذا الشمول ﴿وَكُلُوا﴾
وَأَشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ (r) ﴿٣﴾ وقال ﴿وَعَاشِرُهُنَّ

(٣) الأعراف: ٣١.

بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا
كَثِيرًا ﴿١﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ ﴿٢﴾ ﴿وَوَصَّيْنَا
الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ ﴿٣﴾. واقرأ الآيات من سورة الإسراء من قوله تعالى
﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا يَٰهٗ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إلى قوله ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ
إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ ﴿٤﴾. واقرأ قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ
وَإِيتَآئِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥﴾.
وقد زعم النصارى أن ما جاء به الإنجيل من الفضائل والآداب. أكمل
وأفضل مما جاء به الإسلام.

ونقول ردا على هذا الزعم: إن الإنجيل وإن اشتمل على الفضائل
والآداب إلا أن هذه الآداب خاصة، مؤقتة، لا عامة دائمة، وأن الله إنما أكمل دينه
ووحيه بالقرآن. ففضائله أتم وأكمل، وأعم وأشمل، وأبقى وأدوم.

وقد ذكر المرحوم الأستاذ محمد رشيد رضا فضيلتين من فضائل
الإنجيل وقارن ذلك بما جاء في القرآن الكريم، حتى يظهر الفرق بين ما جاء به
الإنجيل وما جاء به القرآن.

الأولى: قول المسيح عليه السلام «أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم،
احنوإلى من ييغضكم، ومن ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر». الفصل
الخامس من انجيل متى.

ثم قال: ومن المعلوم أن امثال هذه الأوامر يتعذر على غير الأذلة

(١) النساء: ١٩.

(٢) الشمس: ٩ - ١٠.

(٣) الأحقاف: ١٥.

(٤) الإسراء: ٢٣ - ٣٩.

(٥) النحل: ٩٠.

المستعبدین من الناس، وأنه قد يكون من أكبر المفسدات بإغراء الأقوياء بالضعفاء الخاضعين، وإنك لتجد أعصى الناس لهما من يُسمُون أنفسهم بالمسيحيين.

وأمثال هذه الأوامر لا تأتي من دين الفطرة العام، لأن امتثالها من غير المستطاع.. والله تعالى يقول ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (١).

وإنما قرر القرآن في موضعها الجمع بين العدل والفضل والمصلحة فقال تعالى ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٢) وَلَمَنِ اتَّصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٣) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٥)﴾ (٢).

ولا يخفى أن العفو والمغفرة للمسيء إنما تكون من القادر على الانتصار لنفسه، وبذلك يظهر فضله على من عفا عنه، فيكون سببا لاستبدال المودة بالعداوة، في مكان الإغراء بالتعدي ودوام الظلم، ولذلك قال: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٦) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧)﴾ (٣).

الثانية: مبالغة المسيح عليه السلام في التزهيد في الدنيا، والأمر بتركها، ودم الغني، حتى جعل دخول الجمل من ثقب الإبرة أيسر من دخول الغني ملكوت السماوات.

ثم يقول في الرد على هذه المسألة وسابقتها: إنما كانت إصلاحا مؤقتا

(١) البقرة: ٢٨٦.

(٢) الشورى: ٤٠ - ٤٤.

(٣) فصلت: ٣٤ - ٣٥.

لإسراف اليهود وغلوهم في عبادة المال، حتى أفسد أخلاقهم، وآثروا دنياهم على دينهم، والغلو يقاوم مؤقتاً بضده.

أما الإسلام، فهو دين البشر العام الدائم، فلا يقرر فيه إلا ما هو لمصلحة الناس كلهم في دينهم ودنياهم، وهو في هذه المسألة، ذم استعمال المال فيما يضر من الإسراف والطغيان، وذم أكله بالباطل ومنع الحقوق المفروضة فيه، والبخل به عن الفقراء والضعفاء، ومدح أخذه بحقه وبذله في حقه وإنفاقه في سبيل الله بما ينفع الناس^(١) فأين هذه من تلك؟

ولا يفهم البعض أن الإسلام يقف من الديانات السماوية موقف العداء والمخاصمة بل على العكس من ذلك، فعلاقته بها في صورتها الأولى علاقة تصديق وتأيد كله، وإن علاقته بها في صورتها الواقعية علاقة مصدق لما بقي من أجزائها الأصلية، وتصحيح لما طرأ عليها من البدع والإضافات الغريبة عنها.

وليس من أهداف الإسلام أن يفرض نفسه على الناس فرضاً حتى يكون هو الديانة العالمية الوحيدة، بل أن الإسلام هو أول من يعرف أن كل محاولة لفرض ديانة عالمية وحيدة هي محاولة فاشلة. بل هي مقاومة لسنة الوجود ومعاندة لإرادة رب الوجود. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾^(٢) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٤) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا

(١) الوحي المحمدي: ص ١٩٣ - ١٩٥.

(٢) هود: ١١٨ - ١١٩.

(٣) يوسف: ١٠٣.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (١).

هذه هي أخلاق الإسلام كما عبر عنها القرآن. وقد بين القرآن أسلوب الدعوة فجعلها بالحجة والنصيحة في رفق ولين ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّدْ لَهُم بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (٢).

ولا يكتفي القرآن بعدم إكراه الناس على الدخول في الإسلام، بل نراه يوصي بالمشركين الذين هم أبعد الناس عن الأديان السماوية، بأن نكفل لهم الحماية والرعاية والأمان. ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ (٣).

كما لا يكتفي القرآن في تحديد العلاقة بين الأمم الإسلامية والأمم التي لا تدين بالإسلام بأن يجعل هذه العلاقة مبادلة سلم بسلم، بل ندب المسلمين أن يكون موقفهم من غيرهم موقف رحمة وبر وعدل وقسط. ما داموا لم يعتدوا عليهم. نقرأ في ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (٤) وقوله ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يَقْتُلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٥).

فهل ترى أوسع أفقاً، وأرحب صدراً، وأسبق إلى الكرم، وأقرب إلى تحقيق السلام العالمي والتعايش السلمي بين الأمم من تلك الدعوة القرآنية (٦).

ونقرأ هذه الآية الجامعة التي جمعت أمهات الأخلاق وهي قول الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ

(١) يونس: ٨٩٩. (٢) القصص: ٥٦. (٣) النحل: ١٢٥.

(٤) التوبة: ٦. (٥) النساء: ٩٠. (٦) الممتحنة: ٨.

(٧) انظر في ذلك كتاب الدين د/ دراز ٢/١

وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ (١) وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ (٢).

ولا يمكننا أن نحصى الأخلاق التي جاء بها القرآن الكريم، فإن ذلك يحتاج إلى مجلدات، كما لا يتفق ذلك مع طبيعة هذا البحث، ولكننا نشير إلى بعضها فقط فهي تشمل كل جوانب الحياة الإنسانية في السلم وفي الحرب، في العبادات والمعاملات وفي الآداب الخاصة والعامة.

فالقرآن يحض على هذه الأخلاق ويعد من يتخلق بها بالشواب العظيم من مثل الصدق والأمانة والوفاء والصبر والعفاف، والحياء، والسخاء والشجاعة والحكم والإيثار والتعاون على البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإحسان إلى الجار والقريب، والعطف على الفقير والمسكين واليتيم والصبر في مواطن الشدة والعدل مع من أحببت أو كرهت، والعفو عند المقدرة وإصلاح ذات البين.

كما يأمرنا بهذه الآداب من مثل أدب التحية، أدب الاستئذان أدب الجلوس أدب الدخول على المجلس والخروج منه - خفض الصوت وعدم مناداة الكبار من الخارج - استعمال أطيب العبارات في المخاطبة، كما نهانا

(١) النساء: ٣٦.

(٢) البقرة: ١٧٧.

عن هذه الأخلاق من مثل الغش، خيانة الأمانة نقض العهد أكل مال اليتيم، الظلم، اتباع الهوى، التعاون على الإثم والعدوان، شهادة الزور، كتمان الحق، الغدر، الخداع، قول السوء، إفساد ذات البين، القتل، الإفساد في الأرض بترويع الآمنين وقطع الطريق، أكل أموال الناس بالباطل، السخرية، التناзд بالألقاب، الظن السيء بالمؤمنين والمؤمنات، التجسس، الغيبة، قتل المؤمن عمداً، تطفيف الكيل والميزان، وإذا أدخلنا الآداب التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل: أدب الأكل والشرب، أدب النوم واليقظ، أدب اللباس والزينة، أدب المشي، أدب الزيارة، فهي وإن كانت واردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنها تندرج تحت قول الله تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١) فهي آداب قرآنية.

الخاتمة

لقد وصلنا إلى استخلاص النتائج الآتية:

- لقد جاء القرآن والعرب، بل العالم كله في حيرة من أمره، ضلال في العقيدة وفساد في التشريع، وانحراف في الأخلاق، فصصح العقيدة وقوم السلوك، وهذب الأخلاق. ووضع النظام التشريعي الكامل وأوجد تصورا جديدا عن الوجود والحياة والقيم والنظم وحرر العقل من الأوهام والخرافات وفتح أمامه باباً من أبواب التفكير وجعل ذلك من العبادات بل من أفضلها.
- القرآن الكريم اعتبر الإنسان محور هذا الكون وأن كل ما فيه مسخر لخدمته، وعلى الإنسان أن يحسن النظر في ملكوت الله، وأن يفكر في بديع صنع الله

(١) الحشر: ٧.

في الكون وفي الإنسان من غير حدود، كما دعاه إلى الاستقراء والملاحظة والتجريب، أما فيما يتعلق بالأمور الغيبية فلا مجال للعقل فيها، كما أن القرآن لا يحتقر المادة ولا الإبداع المادي، وإنما يجعل هذا اللون من التقدم والارتقاء الحضاري في ظل منهج الله.

— كما أن مسألة التحليل والتحریم تشريع إلهي لا مجال للعقل فيها، وأن مبدأ الحلال والحرام أساس من أسس عملية الضبط الاجتماعي في الإسلام، (ليقوم الناس بالقسط) وعلى الإنسان أن يميز بين غايات التشريع القرآني وغيره من التشريعات الأخرى ليدرك مدى الفرق بين التشريع الإلهي والتشريعات الوضعية.

— لقرآن الكريم وضع المعيار الأسمى للأخلاق الكريمة والآداب الفاضلة وبفضل توجيهاته حكم المسلمون العالم وقدموا للإنسانية نموذجاً فريداً من الحكم العادل والسياسة الرشيدة، لم تعرفه البشرية ولم يخطر لها على بال، وحقق للمسلمين سبقاً حضارياً كبيراً.

— بفضل القرآن استطاع المسلمون أن يصمدوا أمام الغزوات والضربات الموجعة التي وجهت إليهم على مر العصور والأزمان، وما ذلك إلا بفضل تمسكهم بالقرآن ورجوعهم إليه في كل أمر من أمورهم.

— القرآن الكريم له أثره في القلوب، وله سلطان قوي على النفوس، لذلك كان المشركون يمنعون أبناءهم ونساءهم من سماعه خوفاً منهم أن يستولي القرآن على وجدانهم ومشاعرهم، وليس أدل على وجود هذا الأثر من إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سمع القرآن، وكذلك إسلام سعد بن معاذ سيد الأوس وإسلام أسيد بن حضير بعد سماعهم للقرآن فلم يستطيعوا مقاومة هذا الأثر في قلوبهم.

— إن سبب التخلف الذي لحق بالمسلمين هو التخلي عن القرآن الكريمة وتنحيها عن مجال الحكم والسياسة والاقتصاد، وأن صلاح الحاضر الذي

ارتكست فيه الإنسانية اليوم لن يتم إلا عى ضوء الإيمان بالله وتحكيم كتابه.
- إنه لا راحة للبشرية ولا طمأنينة لهذا الإنسان ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة ولا شفاء للأدواء التي تعاني منها الإنسانية إلا بالرجوع إلى الله، والرجوع إلى الله يعني العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه في كتابه.

- إن القرآن دعا إلى وحدة البشرية والإخاء الإنساني فحقق تحرر الإنسان ودعا إلى التوحيد فحقق تحرر العقل، وبهذا التوحيد أقام للعالم حضارة أساسها التقدم والرفق المادي والروحي، وطابعها أخلاقي يرى العدل الشامل لكل البشر.

- إن الإسلام دين ونظام إلهي يقي الحضارات الحديثة من الطغيان والتهور، ودفع الإنسانية إلى السير في طريق الفضيلة والتعمير والقضاء على الشرور والمفاسد وأن العلم البشري وحده لا يصلح أنفس الناس فلا بد من الوحي الإلهي الذي يخضع له الكبير والصغير، والغني والفقير، والقوي والضعيف، وآخر كتب الله إلى الأرض هو القرآن الكريم، فهو حجة الله على الناس يلزم اعتقاده، واتباع أحكامه لقطعية ثبوته وحفظه من التحريف والتغيير والتبدل. لذلك أوصى بما يلي:

١ - ربط الناشئة بالقرآن وتعديل مناهج التعليم في جميع مراحلها بحيث تنفق مع ما جاء به القرآن ولا يقتصر على منهج التربية الإسلامية المعمول به الآن.

٢ - العناية بالدراسات القرآنية في جميع الجامعات الإسلامية وكذلك الثقافة الإسلامية الأصلية المستمدة من تعاليم القرآن وهدى النبي صلى الله عليه وسلم وإنشاء معاهد متخصصة لدراسة القرآن الكريم في كل بلد إسلامي «معاهد للقراءات وتجويد القرآن».

٣ - العناية التامة باللغة العربية لأنها لغة القرآن، والعناية بدراسة التاريخ الإسلامي

دراسة واعية للوقوف على الأسباب التي أدت إلى انتشار الإسلام في أول عهده.

٤ - صياغة القوانين والنظم التي يحتكم إليها العالم الإسلامي اليوم وفق منهج القرآن الكريم ووضع نظام اقتصادي عادل يقوم على الابتعاد عن الربا والاستغلال والاحتكار.

٥ - وضع ميثاق أخلاقي مستمد من تعاليم القرآن الكريم تلتزم به كل وسائل الإعلام، لكي تقي الشباب من الانحراف والفساد، ولكي تتجنب الخوض في أعراض الناس.

٦ - الإلتزام بالحدود التي جاء بها القرآن والحزم في تطبيقها صونا لأمن المجتمع وسلامة أفراد.

«وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين»

ملخص

القرآن الكريم: هو الكتاب الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم وهو معجزته الخالدة تحدى الله به العرب فعجزوا، وتحدى به الإنس والجن فعجزوا. وما زال الإعجاز باقيا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وهو الكتاب الوحيد من بين سائر كتب الله الذي تكفل الله بحفظه.

وقد أنزله الله والعرب، بل العالم كله في أشد الحاجة إليه فأتاهم بالعقيدة الحقة بعد أن كانوا منها في أمر مريج، والشرعية الصحيحة بعدما تفرقت بهم الطرق، وتقطعت بينهم الأسباب، وأتاهم بالنظم الصالحة لبناء أمة قادرة على أن تسهم في بعث العالم ونهضته ووحدته، والأخلاق الفاضلة بعد أن سادت في المجتمع الجاهلي - بل في المجتمع الإنساني بصفة عامة -

الردائل والمنكرات من ضلال في العقيدة. وفوضى في التشريع، وفساد في الأخلاق، فأحدث في العالم ثورة وانقلابا لم يشهد لهما التاريخ مثيلا من قبل.. ثورة في التفكير، ثورة في الأخلاق، ثورة في الحضارة، ثورة في المدنية، ثورة إصلاحية شاملة لكل مرافق الحياة الإنسانية، في كل بقعة من بقاع الأرض التي استظلت بظل الإسلام، كما قدم للإنسانية نموذجا رائعا للإنسان المتكامل في عقيدته وسلوكه وأخلاقه. فأقبل عليه الناس من جميع البقاع ومن كل الأجناس وربط القرآن بينهم برباط العقيدة وألف بين قلوبهم حتى أصبحوا بنعمة الله إخوانا متحابين وكانوا بذلك خير أمة أخرجت للناس، قادت العالم وعلمت البشرية قرونا طويلة.

ولا يكون المسلم مسلما حقا إلا إذا آمن بذلك كله، آمن بأنه على خير دين وأنه أوتي خير كتاب إلهي، وأن أمته خير أمة أخرجت للناس، وأن حضارته صلحت بها الإنسانية قرونا طويلة، ولا تزال صالحة لقيادة العالم إلى يومنا هذا، وهو الكتاب الوحيد الذي يستطيع أن ينقذ العالم من الحيرة والضلال والتخبط والاضطراب، لأنه يعترف لكل ذي حق بحقه، ولكل صاحب دين بدينه من غير تجاوز أو اعتداء.

ولن يعود للمسلمين عزهم ومجدهم إلا إذا عادوا من جديد إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم عند ذلك فقط يتحقق لهم ما ينشدونه من التقدم والحضارة والرفي والأمن والسلام، ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى القرآن ففيه وحده الشفاء من كل الأدواء التي تعاني منها الإنسانية اليوم.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٥٣)

(الأنعام: آية ١٥٣)

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المراجع

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن - طبعة الشعب - القاهرة.
- ٣ - مختصر تفسير ابن كثير: للصابوني - دار القرآن الكريم - بيروت.
- ٤ - الكشف: عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري - دار المعرفة - بيروت.
- ٥ - في ظلال القرآن: للمرحوم سيد قطب - دار الشروق - بيروت ١٩٨٥.
- ٦ - البرهان في علوم القرآن: لبدر الدين الزركشي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - ١٩٧٥ م.
- ٧ - الإنشقاق في علوم القرآن: للإمام السيوطي - ط ٢ - الحلبي ١٩٥١ م.
- ٨ - الوحي المحمدي: محمد رشيد رضا - المكتب الإسلامي - ط ٩ - بيروت ١٩٧٩ م.
- ٩ - النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن: د. محمد عبدالله دراز - تحقيق د/ عبدالصبور شاهين.
- ١١ - مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبدالعظيم الزرقاني - دار إحياء الكتب العربية - الحلبي.
- ١٢ - أخلاق أهل القرآن: للإمام أبي بكر محمد بن الحسين الآجري - دار الكتب العلمية - بيروت.
- ١٣ - نحو القرآن الكريم: د. محمد البهي - مكتبة وهبة القاهرة ١٩٧٦ م.
- ١٤ - الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة: محمد عزة دروزة - المكتب الإسلامي ١٩٨١ م.
- ١٥ - المحاور الخمسة للقرآن الكريم: الشيخ محمد الغزالي - دار الوفاء القاهرة

- ١٩٨٩م.
- ١٦ - نظرات في القرآن: الشيخ محمد الغزالي - دار الكتب الحديثة - مصر
- ١٩٦١م.
- ١٧ - الأصول العظيمان (الكتاب والسنة): جمال البنا - مطبعة حسان - القاهرة.
- ١٨ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري: للحافظ ابن حجر العسقلاني - دار المعرفة بيروت.
- ١٩ - صحيح مسلم بشرح النووي: دار إحياء التراث العربي - ط الثالثة ١٩٨٤م - لبنان.
- ٢٠ - زاد المعاد في هدى خير العباد: لابن القيم الجوزية - المطبعة المصرية ١٩٧٣م - ط ٣.
- ٢١ - البداية والنهاية: للحافظ ابن كثير مكتبة المعارف - بيروت.
- ٢٢ - الطبقات الكبرى: لابن مسعود - دار صادر - بيروت.
- ٢٣ - تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك): مكتبة خياط - بيروت - لبنان.
- ٢٤ - الروض للأنف: للإمام السهيلي - دار الكتب الحديثة ١٩٦٧م.
- ٢٥ - الاشتقاق: لابن دريد الأزدي، تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون - مكتبة المثنى.
- ٢٦ - الأصنام: للكليبي، تحقيق الأستاذ أحمد زكي - الدار القومية للطباعة والنشر.
- ٢٧ - أخبار مكة المشرفة: روائع التراث العربي.
- ٢٨ - التاريخ الإسلامي العام: د/ علي إبراهيم حسن - مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٧م.
- ٢٩ - معجم البلدان: ياقوت بن عبدالله - دار الكتاب العربي - بيروت.
- ٣٠ - تهذيب سيرة ابن هشام: للأستاذ عبدالسلام هارون - دار الطباعة والنشر -

مصر.

- ٣١ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي - دار الكتب المصرية.
- ٣٢ - أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها: عبدالرحمن حسن الميداني - دار القلم - دمشق - بيروت.
- ٣٣ - مقالات الإسلاميين: للأشعري، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد - ط ٢ - ١٩٨٥م.
- ٣٤ - رسالة التوحيد: للإمام محمد عبده - دار إحياء العلوم - بيروت ط ٥ - ١٩٨٥م.
- ٣٥ - إظهار الحق: للإمام رحمة الله الهندي، تحقيق عمر الدسوقي - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت.
- ٣٦ - الإسلام عقيدة وشريعة: الشيخ شلتوت - ط ٣ - دار القلم ١٩٦٦م.
- ٣٧ - الدين (بحوث في تاريخ الأديان): د/ محمد عبدالله دراز - دار القلم ط ٢ - ١٩٧٠م.
- ٣٨ - الإسلام في عصر العلم: د/ محمد أحمد الغمراوي - مطبعة دار السعادة ١٩٧٣م.
- ٣٩ - الخصائص العامة للإسلام: د/ يوسف القرضاوي - مكتبة وهبة القاهرة ١٩٨٦م.
- ٤٠ - الإسلام في القرن العشرين (حاضره ومستقبله): عباس محمود العقاد - دار الكتب الحديثة ١٩٥٤م.
- ٤١ - ما يقال عن الإسلام: عباس محمود العقاد - دار الهلال ١٩٦٦.
- ٤٢ - حقائق الإسلام وأباطيل خصومه: عباس محمود العقاد - دار النهضة مصر ١٩٥٧م.
- ٤٣ - أصول الفقه: للأستاذ محمد أبو زهرة - دار الفكر العربي ١٩٥٧م.

٤٤ - تهافت العلمانية: د/ عماد الدين خليل مؤسسة الرسالة - بيروت
١٩٨٣م.

٤٥ - سموم الاستشراق والمستشرقين: للأستاذ أنور الجندي - مكتبة التراث
الإسلامي في العلوم الإسلامية - القاهرة.

٤٦ - العلم يدعو للإيمان: كريس موريسون - ترجمة محمود صالح الفلكي -
مكتبة النهضة المصرية - ط ٥ يونيه ١٩٦٥م.

THE QUR'AN AND HUMANITY'S NEED FOR IT

By: Dr. Abdul Aziz Saqr

1. The Quran is a holy Book revealed by All-mighty Allah to prophet Mohammed (Peace be Upon Him). It is Allah's eternal miracle by which Allah has challenged the Arabs, man as well as the Jin. It is the only holy book that Allah has promised to safeguard and preserve until the Day of Judgment.
2. The Quran is a book of guidance, a book of belief, and a book of legislation. It calls for and propagates the highest form of behavior, the proper use of the human mind, the widespread performance of everything good, a search for knowledge, and a correct belief in God.
3. A Muslim's belief is never complete unless he believes in the oneness of God and Islam as the only acceptable religion and in all God's messengers and heavenly books.
4. History has proved that when Muslims follow the Quranic teachings, they prosper, are victorious, and establish a great civilization on earth. So, Muslims today will not rise into greatness unless the Quran has become an intrinsic part of their lives and a source of their legislation.